القسم الأول

أولاً: الكاتب والعصر والكتابة
ثانياً: الموضوعات في رسائل «ابن أبي الشخباء» الإخوانية

أولاً

الكاتب والعصر والكتابة

(أ)

الـكـاتـب

يقـول «ياقوت» في معجم الأدباء عن «ابن أبـي الشخباء» أنـه «الحسن بن محمـد بن عبـد الصمـد بن أبـي الشخبـاء، أبـو على العسقـلاني، صـاحب الرسائل، وكان يلقّب بالمجيد ذي الفضيلتين، أحد البلغاء الفصحاء الشعراء، له رسائل مدوّنة مشهورة، قيل: إن القاضي الفاضل عبـد الرحمن بن البيسـاني منها استمدّ، وبها اعتدّ»[1] وذكره «العماد الأصبهاني» في خريدة القصر، ووصفه بـأنه «مجيـد كنعته، قـادر على ابتداع الكـلام ونحته، لـه الخـطب البـديعـة، والملـح الصنيعـة، وكـان قبـل عصـرنـا في أيـام الأقسيس سنـة سبعين وأربعمـائة»[2] وتـرجم له «ابن خلكان» في وفيات الأعيان، فقـال عنـه «الشيـخ المجيد أبو علي الحسن بن عبد الصمد بن أبـي الشخباء العسقلاني، صـاحب الخـطب المشهورة والـرسائـل المحبّرة، كـان من فرسـان النثر، ولـه فيـه اليد

---

(١) يـاقوت: معجم الأدبـاء ــ دار إحياء الـتراث العربـي ــ بـيروت ــ المجلد الخـامس ــ الجزء التاسـع، ص ١٥٢.

(٢) العـماد الأصفهاني ــ خـريدة القصر وجـريـدة العصر ــ الجـزء الخـاص بشعـراء مصر وفلسـطين ــ ت : أحمـد أمـين ــ د. شـوقي ضيف ــ د. إحسـان عبـاس. القـاهـرة ١٩٥١م ــ ص ١٤.

الطولى، ويقال: إن القاضي الفاضل، رحمه الله تعالى، كان جلّ اعتماده على حفظ كلامه، وإنه كان يستحضر أكثره»[1].

ويبدو أن ترجمة ابن أبي الشخباء سقطت من «الذخيرة»[2]، فقد ذكر «ابن بسّام» صاحب «الذخيرة» بعض رسائل «ابن أبي الشخباء»، ولم نعثر معها على ترجمة لصاحب الرسائل، ومن الواضح أن الورقة الأولى في الذخيرة عند الجزء الخاص بالحديث عن «ابن أبي الشخباء» مفقودة، كما أن «الصيرفي»[3] صاحب كتاب «الأفضليات» لم يزد على ذكره «الحسن بن عبد الصمد ابن أبي الشخباء، وهو أبو علي العسقلاني» ويضيف المحققان للأفضليات ترجمة في الحاشية عن «ابن أبي الشخباء»، اعتمدا فيها على ما ذكره «الزركلي» في كتابه «الأعلام»[4]، ويذكر الصيرفي «أن ابن زيدون القُرْطُبي، وابن أبي الشخباء قد كانا في عصر، وإن لم يجتمعا في مصر»[5]، وذكر بعض أوجه التشابه بين شعريهما. ويقول «الزركلي» في الأعلام أن «ابن أبي الشخباء» هو «الحسن بن عبد الصمد بن أبي الشخباء العسقلاني، أبو علي، ويقال له الشيخ المجيد، منشىء، له خطب ورسائل جيدة، كان القاضي الفاضل يحفظ أكثرها، وأصله من عسقلان، وقتل بالقاهرة مسجوناً،

---

(١) ابن خلكان ــ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ــ ت: د. إحسان عباس ــ دار الثقافة ــ بيروت ــ المجلد الثاني ــ ٨٩ ــ ٩١.

(٢) ابن بسّام ــ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ــ ت: د. إحسان عبّاس ــ الدار العربية للكتاب ــ ليبيا ــ القسم الرابع ــ المجلد الثاني ــ ص ٦٢٧، (ويعلق المحقق ضاعت من الصفحة أوّل ترجمة المجيد بن أبي الشخباء).

(٣) الصيرفي ــ كتاب الأفضليات ــ ت: د. وليد قصّاب ــ د. عبد العزيز المانع ــ دمشق ١٩٨٢م ــ الطبعة الأولى ــ ص ٤٩.

(٤) الزركلي ــ الأعلام ــ الجزء الثاني ــ بيروت ــ ١٩٦٩م ــ ص ٢١٠.

(٥) الصيرفي ــ الأفضليات ــ ص ٤٩.

وله نظم في ديوان قد رآه ابن خلكان، وقد جاء اسم الحسين بدلاً من الحسن وهو من خطأ الطبع»[1]، وقد جاء ذكر «ابن أبي الشخباء» في بعض الدراسات الحديثة[2] وهي تراجم لا تضيف جديداً إلى ما ذكرته المصادر السابقة.

ولا يُعثر على شيء يُهم في التعرف على حياة «ابن أبي الشخباء»، أو يُسهم في تفسير رحلته من عسقلان إلى مصر ــ أو تفسير سبب تسميته «بابن أبي الشخباء»، وتؤكد معظم المصادر التي ذكرت «ابن أبي الشخباء» على موته مقتولاً في «خزانة البنود» بمصر (٤٨٢هـ)، ولم توضح هذه المصادر سبب قتله، أو سبب اعتقاله في «خزانة البنود».

وفي مادة «شخب» يقول «ابن قتيبة» في أدب الكاتب «وشَخَبَ اللبن يشخُبُ ويَشْخَبُ، ومَخَضَ اللبنَ ويمخُضُهُ ويمخَضُه»[3]، ولم يذكر «ابن خلكان» في وفيات الأعيان عند تفسيره للشخباء غير قوله: «أنها بفتح الشين المثلثة وسكون الخاء المعجمة، وبعد الباء الموحدة ألف ممدودة» وفي لسان العرب، مادة شخب الشخبُ والشُخْبُ: ما خرج من الضَّرْع من اللبن إذا احتلب، والشَخْبُ بالفتح المصدر، وفي المثل: شُخْبٌ في الإناء، وشُخْبٌ في الأرض، أي يصيب مرة ويخطىء أخرى، والشخبةُ الدفعة منه، والجمع شِخَاب، وقيل: الشُخبُ بالضم من اللبن ما امتد منه حين يحلب متصلاً بين الإناء والطُبْيِّ، والشُخب: صوت اللبن عند الحلب، والشِخاب: اللبن،

(١) الزركلي ــ الأعلام ــ ص ٢١٠.

(٢) منها: د. محمد كامل حسين ــ أدب مصر الفاطمية ــ د. شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر العربي ــ د. عمر فروخ في الأدب العربي ــ ج ٣.

(٣) ابن قتيبة ــ أدب الكاتب ــ ت: محمد الدالي، مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ الطبعة الأولى ــ سنة ١٩٨٢م ــ مادة شخب، باب فعل يفعل ويفعل ــ ص ٤٨١.

والشخب الدم وكل ما سال»[1] ولعل الاسم غلب على أبيه، ولم يعلّل، ولم يُعرف بغيره، ربما لخمول لحقه، وربما يعود إلى صفة امرأة في عائلته، غلب عليها حلب اللبن وصنعته.

«وابن أبي الشخباء»، مولده «عسقلان»، وهي مدينة بالشام، من أعمال «فلسطين». على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين، ويقال لها عروس الشام، وفيها قال النبي عليه السلام أبشركم بالعروسين: غزة وعسقلان[2]، وعنها يقول البكري الأندلسي: «عَسْقلان بفتح أوله، وبإسكان ثانيه، بلد معروف، واشتقاقه من العساقيل وهو من السراب، أو من العسقيل، وهو الحجارة الضخمة»[3] وفيها يقول ابن خلكان «العسقلاني نسبة إلى مدينة عسقلان وهي مشهورة على الساحل»[4] وفيها يقول البغدادي في مراصد الإطلاع «كان يرابط بها المسلمون لحراسة الثغر فيها»[5] ويصفها الحميري في الروض المعطار «بأن أسواقها مفروشة بالرخام، وفيها عين ماء لإبراهيم عليه السلام»[6].

---

(١) ابن منظور المصري ــ لسان العرب ــ مادة شخب وفيها: الشخب عرق الدم إذا سال، وقولهم عروقاً تنشخب.

(٢) ياقوت ــ معجم البلدان ــ دار صادر ــ بيروت ــ المجلد الرابع ــ (عسقلان) ــ ص ١٢٢، وعنها قال ياقوت أيضاً: افتتحها أوّلاً معاوية ابن أبي سفيان في خلافة عمر بن أبي الخطاب رضي الله عنه، وقال عنها عبد الله بن عمر: لكل شيء ذروة، وذروة الشام عسقلان.

(٣) البكري الأندلس ــ معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ــ ت: مصطفى السقا. عالم الكتب ــ بيروت ــ الطبعة الثالثة ــ ١٩٨٣م ــ الجزء الثالث ــ (عسقلان) ــ ص ٩٤٣.

(٤) ابن خلكان البغدادي ــ وفيات الأعيان ــ ٢/١٩١.

(٥) البغدادي (مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع) ــ ت: علي محمد البجاوي ــ عيسى البابي الحلبي ــ مصر ــ الجزء الثاني ــ (عسقلان).

(٦) الحميري (كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار)، ت: د. إحسان عباس ــ مكتبة =

ولم نقف على نص يوضح، متى رحل ابن أبي الشخباء من عسقلان إلى مصر، ولم رحل؟ وهل هاجر وحده أم مع أسرته؟. وربما تفتحت مواهب ابن أبي الشخباء في صباه بعسقلان، وفكر في الرحيل إلى مصر، لِمَا سمعه عن الفاطميين وعن أعيادهم واحتفالاتهم واهتمامهم بالكتابة والكتّاب، لينضم إلى كتّاب الديوان الفاطمي، كما رحل من عسقلان أيضاً، في ظل الخلافة الفاطمية أبو الفتيان مُفضّل العَسقلاني، وقد جاء ذكره في الخريدة...

وابن أبي الشخباء كاتب عهد المستنصر الفاطمي، لم يكن من رؤساء ديوان الإنشاء، ولكنه كان من كتّابه الكثيرين، ويظن ياقوت: «أنه كتب في ديوان الرسائل للمستنصر صاحب مصر، لأن في رسائله جوابات إلى البساسيري، إلاّ أن أكثر رسائله إخوانيات، وما كتبه عن نفسه إلى أصدقائه ووزراء وأمراء زمانه»[1] والبساسيري هذا، هو الذي ثار (٤٥٠ ـ ٤٥١هـ) في بغداد على الخليفة القائم العباسي (٤٢٢ ـ ٤٦٧هـ) من أجل الإطاحة بالخلافة العبّاسية، والدعوة لإقامة الإمامة الفاطمية في بغداد والعراق...»، وربما كان أهم كاتب فاطمي احتفظت لنا المصادر بصورة واضحة من عمله، وربما كان أبن أبي الشخباء كاتب عصر المستنصر خير من يعبّر عن ازدهار النهضة الفنية للنثر الفاطمي، فقد بقيت لنا من أعماله طائفة صالحة تفسّر طابعه الفني، بل طابع عصره في الكتابة»[2].

ويذكر ابن خلكان أن ابن أبي الشخباء توفي مقتولاً بخزانة البنود،

= لبنان ـ بيروت ـ ١٩٧٥م، وفي نزهة المشتاق (١١٣) مدينة حسنة ذات سورين، وهي معدودة في أرض فلسطين.

(١) ياقوت ـ معجم الأدباء ـ ١٥٢.

(٢) د. شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر العربي ـ دار المعارف ـ الطبعة الثانية ١٩٧٧م ـ ص ٣٥٩، ص ٣٦٠.

وهو سجن بمدينة القاهرة المعزّية، سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة[1]، بينما يرى ياقوت أنه مات فيما ذكره ابن بسّام في الذخيرة، في سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة، معتقلاً بمصر في خزانة البنود[2]. وذكر ابن ميسر في تاريخ مصر أن «ابن أبي الشخباء» قتل سنة ٤٨٦هـ[3]. وجعل «المقريزي» وفاته سنة أربعمائة وست وثمانين[4]، ولا صحة لما ذكره «ياقوت» في معجم الأدباء عن قتل «ابن أبي الشخباء» سنة أربع مائة واثنتين وثلاثين فهو يتناقض مع ما ذكره ياقوت نفسه عن «ابن أبي الشخباء» حين أشار إلى رسائله إلى البساسيري مع الفتنة التي وقعت ببغداد في عامي ٤٥٠، ٤٥١هـ...

وعلى الأرجح، فإن «ابن أبي الشخباء» اعتقل في آخر سنوات عمره، وفي آخر سنوات حكم المستنصر بالله، إبّان تلك الأزمة الطاحنة التي عاشتها مصر في تلك الفترة وصورتها مصادر التاريخ الإسلامي والمصري. وربما كان في قلم «ابن أبي الشخباء»، وفي تعبيره عن آرائه صراحة في بعض رسائله، وفي مساندته لأية قوى معارضة للحكم الفاطمي، وربما وشاية أو سعاية لحقت به، فَزُجَّ به في خزانة البنود معتقلاً، عندما امتدت الفوضى من خارج الخزانة إلى داخلها، فيعثر عليه مقتولاً، لا يعرف من قتله، ولِمَ قتله؟ كما لم يعرف سبب اعتقاله في خزانة البنود.

وقد استمرت خزانة البنود سجناً للأمراء والوزراء والأعيان إلى أن زالت الدولة فاتخذها ملوك بني أيوب سجناً يعتقل فيه الأمراء والمماليك»[5].

---

(١) ابن خلكان ــ وفيات الأعيان ــ ج ٢: ص ٩١.

(٢) ياقوت: معجم الأدباء ــ ص ١٥٢.

(٣) ابن ميسر: في تاريخ مصر ــ ص ٢٩، وأدب مصر الفاطمية ــ محمد كامل حسين ــ ص ٣٣٢.

(٤) المقريزي ــ ٢/٣٢٨.

(٥) الخطط للمقريزي ــ ج ١ ــ خزانة البنود هي الرايات والأعلام، وكانت خزانة البنود =

ولم يكن ابن أبـي الشخباء الذي قتل وحده، فقد قتل من شعراء الدولـة الفـاطمية وعلمـائهـا علي بن عبـاد الإسكنـدري (٥٢٥هـ) الـذي مـدح ابن أبـي الأفضل، وقتل معه، لما قتله الحافظ[١]. والشاعـر الرشيـد بن الزبيـر الغسّاني الأسواني، قبض عليه، وجرِّد من ماله وقتـل لمَّا خـرج بصعيد مصـر، أيَّام العزيز ثم قبض عليه، وضربت رقبته، وجنـاده الهروي الـذي لم يكن في زمنه مثله وقتله الحاكم في سنة ٣٩٩هـ كما قتل المقرّي الأنطـاكي[٢].

(ب)
العـصـر

للعصـر الفاطمي بمصـر (٣٥٨ ـ ٥٦٦هـ) طـوابـع متميـزة، نتيجـةً لمـا شاهده من صراعات وتنـاقضات. وكـان الأدب في ظل الفـاطميين من أوضـح الجـوانب التي ظهر فيهـا تـأثيـر العصـر في نـواحيـه السيـاسيـة والاجتمـاعيـة والاقتصـادية والمـذهبية والأدبيـة إلى آخر هـذه المؤثرات التي كـان من شأنهـا تشكيل ملامـح الأدب في العصر بطوابعها الخاصة.

وتصـوّر كتب التـاريـخ القـديمـة والحـديثـة[٣]، فتـرة الحكم الفـاطمي

= ملاصقة للقصر الكبير، فيما بين قصر الشوك وباب العيد، بناها الحـاكم الظاهـر، وكان فيهـا ثلاثـة آلاف صانـع مبـرزين، وقد شبّ بهـا حريق، جعلت خـزانـة البنـود بعـده حبساً، وفيها يقول القاضي المهذب بن الزبير لما اعتقل بها:

أيـا صـاحبـي سجن الخـزانـة خليـاً نسيم الصبا يرسـل إلى كبدي نفحـاً

وفي سنة إحدى وأربعين وسبعمائة في ولاية الأمـير الحاج، أمـر بهدم خـزانة البنـود، ولم يبق لها أثر، وبنوا فيها الدور والطواحين (الخطط ص ٤٢٤ ـ ص ٤٢٥).

(١) حسن المحاضرة، ١: ٣٢٣.

(٢) الوفيات ـ ١: ١٣٤.

(٣) منها المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط للمقريزي ٨٤٥هـ، ومنهـا =

تصويراً دقيقاً مفصّلاً، وخاصة فترة ولاية المستنصر بالله على مصر (٤٢٧ ـ ٤٨٧هـ = ١٠٣٥ ـ ١٠٩٤م) وهي الفترة التي عاش فيها «ابن أبي الشخباء» في مصر، بعد هجرته من «عسقلان»، وعمله كاتباً في بلاط «المستنصر»، في ديوان رسائله.

والمستنصر بالله «هو أبو تميم معدّ الملقب بالمستنصر بالله بن الظاهر لإعزاز دين الله علي بن الحاكم بأمر الله منصور بن العزيز بالله، أول الخلفاء الفاطميين بمصر، المصري المولد والمنشأ والدار والوفاة»[1]، وقد قضى المستنصر في الخلافة ستين سنة وأربعة أشهر وثلاثة أيام[2]، ولا يعلم في الحكم الإسلامي أحد طالت مدته من الخلفاء أو السلاطين مثل المستنصر[3]. وهي مدة «لم يعمرها في الحكم خليفة مسلم»[4].

= النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردى ٨٧٤هـ، وتاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار للجبرتي، وكتاب الروض المعطار في خبر الأقطار للحميري ٩٠٠هـ، ومن الكتب الحديثة: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ـ د. أحمد شلبي ـ ١٩٧٩م ـ والتاريخ الإسلامي ـ د. حسن إبراهيم، وحسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة للسيوطي، وأدب مصر الفاطمية لمحمد كامل حسين.

(١) ابن تغري بردى ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ـ ط. دار الكتب ـ وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ الجزء الخامس ـ ص ١.

(٢) المقريزي ـ كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية ـ دار صادر ـ بيروت ـ الجزء الأوّل ـ ص ٣٥٦.

(٣) محمود مصطفى ـ الأدب العربي في مصر، من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الأيّوبي ـ المؤسّسة المصرية العامة ـ دار الكتاب العربي ـ الطبعة الأولى ١٩٦٧م، ص ٢٠٦.

(٤) د. أحمد شلبي ـ موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلاميّة ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ الطبعة الرابعة ـ ١٩٧٩م ـ الجزء الخامس ـ ص ١٣٢.

وقد بويع «المستنصر» بخلافة مصر بعد وفاة أبيه «الظاهر»، وكان «المستنصر» يومئذٍ في السابعة من عمره «وكان أبوه مشغوفاً باللهو محباً للغناء فتأنّق الناس في أيامه بمصر، واتخذوا المغنيات والرقّاصات وبلغوا من ذلك مبلغاً عظيماً»[1]، وفي دولة «المستنصر» كان الرقص والسبُّ فاشياً مجهراً، والسُنَّة والإسلام غريبين[2] وحدث في أيام المستنصر بمصر الغلاء «الذي ما عهد بمثله منذ زمن يوسف عليه السلام، ودام سبع سنين حتى أكل الناس بعضهم بعضاً، وقيل بيع رغيف واحد بخمسين دينار، وحتى أن المستنصر هذا بقي يركب وحده، وخواصه ليس لهم دواب يركبونها، وإذا مشوا سقطوا من الجوع، وآل الأمر إلى أن استعار المستنصر بغلة يركبها من صاحب ديوان الإنشاء، ونزحت أم المستنصر وبناته إلى بغداد خوفاً من أن يمتن جوعاً»[3]، وربما كان لتولّيه الخلافة في طفولته، وفرض وصاية الوزراء والقوّاد عليه سبباً فيما وصل إليه الحال، كما عُرِفَ بأن أمّه كانت جاريةً سوداء لتاجر يهودي، ابتاعها عنه الظاهر واستولدها المستنصر[4] ولقي المستنصر شدائد وأهوالاً «وانفتقت عليه الفتوق بديار مصر، أخرج فيها أمواله وذخائره إلى أن بقي لا يملك غير سجادته التي يجلس عليها، وهو مع هذا صابر غير خاشع»[5]، وقد آلت هذه الأهوال العظيمة والشدائد بالمستنصر إلى أن جلس على نخ وفقد القوت، فلم يقدر عليه، حتى كانت امرأة من

---

(١) المقريزي ــ ١/٣٥٥.

(٢) ابن تغري بردى ــ النجوم الزاهرة ــ الجزء الخامس ــ ص ٣.

(٣) ابن تغري بردى ــ النجوم الزاهرة ــ الجزء الخامس ــ ص ٢.

(٤) المقريزي ــ الخطط ــ ١/٣٥٥.

(٥) ابن الأثير ــ الكامل في التاريخ ــ المجلد العاشر ــ دار صادر للطباعة والنشر ــ بيروت ــ حوادث سنة ٤٨٧هـ.

الأشراف تتصدق عليه في كل يوم بقعب فيه فتيت فلا يأكل سواه مرة في كل يوم»[1]، ويذكر ابن تغري بردى أن «القحط كان من سنة سبع وخمسين إلى سنة أربع وستين وأربعمائة، وكان معظم الغلاء سنة اثنتين وستين»[2]، وقال أبو يعلى بن القلانس: «في أيام المستنصر، ثارت الفتن في بني حمدان وأكابر القواد، وغلت الأسعار، واضطربت الأموال، واختلت الأعمال، وحُصِر في قصر وطُمِع فيه، ولم يبق للمستنصر أمر ولا نهي إلاَّ الركوب في العيدين، ولم يزل كذلك حتى استدعى أمير الجيوش بدر الجمالي من عكا إلى مصر، فاستولى على التدبير وقتل جماعة ممن يطلبن الفساد»[3]، وكانت أم المستنصر تعين العبيد بالأموال والسلاح في الفتنة التي وقعت بين الأتراك، كما وافق هذه الفترة انقطاع النيل، وتوقف الزراعة وقد أرغم الجند الخليفة على بيع ممتلكاته ليدفع لهم أجورهم. «وندر الخبز وانتشرت المجاعات»[4] وأكل الناس الكلاب والقطط، ودمر الجند المكتبة الثليدة، واستعملوا جلودها أحذية لهم»[5]، «وضعفت قوى الوزراء عن التدبير لقصر مدة كل منهم، وخرّبت الأعمال وقل ارتفاعها، وكثر الاستخفاف بالأمور، وطغيان الأكابر إلى أن آل الأمر إلى حدوث الشدة العظمى»[6] وهي المعروفة بالشدة المستنصرية إلى أن مات المستنصر

---

(١) المقريزي ــ الخطط ــ ١/٣٥٦.

(٢) ابن تغري بردى ــ النجوم الزاهرة ــ ٥/٣.

(٣) ابن القلانس ــ ذيل على تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر ــ والنجوم الزاهرة ــ ٥/٤.

(٤) د. أحمد شلبي ــ موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ــ الطبعة الرابعة ــ مكتبة النهضة المصرية ــ القاهرة ــ الجزء الخامس ــ ١٩٧٩م ــ ص ١٣٦.

(٥) ابن خلكان ــ وفيات الأعيان ــ ٢/١٠٣.

(٦) المقريزي ــ الخطط ــ ١/٣٥٥.

في سنة سبع وثمانين وأربعمائة، وتولى ابنه المستعلي»[1].

ولم يكن العهد الفاطمي شدة ومجاعة وقحطاً كله. ولم تكن مدة خلافة المستنصر كلها على هذه الصورة التي أشارت إليها المصادر التي صوَّرت الشدة المستنصرية، ولكنها كانت بعض سنوات حكمه، وكان عصره فيه من الرخاء والتوسع والتسامح الديني مما يمكن أن يسمى بعصر المفارقات، وهذه الشدة كانت في أواخر سنيّ حكمه، ومن مظاهر التوسع في عصر المستنصر ما حدث ببغداد، فقد خُطِب للمستنصر على منابر بغداد أربعون خطبة، في أربعين جمعة، وقد غنت مغنية بالبيتين التاليين للمستنصر:

يا بني العباس صدوا ... ملك الأمرَ معِدُّ
مُلْكُكُم كان مُعاراً ... والعواري تُسْتَرَدُّ[2]

فطرب لذلك ووهب لها أرضاً بمصر جائزة»[3].

وقد عرفت مصر إبَّان الحكم الفاطمي ثراءً ورخاءً لم تعرفه في عصورها الأخرى، وعرفت مواسم وأعياداً ذكرها المقريزي في خططه في حديثه عن الأيام التي كان الخلفاء الفاطميون يتخذونها أعياداً ومواسم، يتسع بها أحوال الرعيّة وتكثر نعمهم ومنها «موسم رأس السنة وموسم أول العام، ويوم عاشوراء، ومولد النبي صلى الله عليه وسلم، ومولد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومولد الحسن ومولد الحسين عليهما السلام، ومولد فاطمة الزهراء عليها السلام، ومولد الخليفة وليلة أول رجب وليلة أول شعبان وليلة نصفه، وموسم ليلة رمضان، وغُرَّة رمضان، وسماط رمضان، وليلة الختم،

---

(١) ابن الأثير ــ الكامل في التاريخ ــ المجلد العاشر ــ حوادث سنة ٤٨٧هـ.
(٢) المقريزي ــ الخطط ــ ١/٣٥٦.
(٣) ابن تغري بردى ــ النجوم الزاهرة ــ ٥/١٢٠.

وموسم عبد الفطر، وموسم عيد النحر. . .»[1]، وكان للفاطميين في كل مناسبة تقاليد خاصة، تتسم بالرخاء والاستمتاع بالعيش والتمتع بلذائذ الحياة؛ «وكان لهم في شهر رمضان عدة أنواع من البر، منها كشف المساجد وإبطال المسكرات، وسماط شهر رمضان، وسحور الخليفة، ومنها الختم في آخر رمضان، وفي موسم عيد الفطر كان لهم عدة وجوه من الخيرات منها تفرقة الفطرة، وتفرقة الكسوة، وعمل السماط، وركوب الخليفة لصلاة العيد»[2]. ويذكر المقريزي في خططه «أن الخليفة الظاهر الفاطمي تصدّق بمائة ألف دينار من أجل أنه سقط عن فرسه وسلم»[3].

وظل الخلفاء الفاطميون يتبارون مع خلفاء بني العباس في جذب الشعراء والكتّاب وفي الإغداق عليهم، وقد حصرت أسماء الشعراء ورتبهم على أقدارهم، وخصصت لهم أوقات يتعاقبون على الخليفة للإنشاد بين يديه، وكان يطلب من الشعراء الاختصار في الإنشاد حين الوقوف بين يدي الخليفة، وقد عقد صاحب الخريدة فصلاً خاصاً عن شعراء احتفوا بالصالح بن رزيك وزير القائد»[4]، وقد قُسِّم الشعراء في هذه الدولة، كما جاء ذكر ذلك في الخريدة وفي المُغرب في حلى المغرب، إلى طوائف وأصناف منهم شعراء العلماء، وشعراء الكتّاب، وشعراء الوزراء، وشعراء الشرفاء، وشعراء طارئون على البلاد، وآخرون نشأوا فيها، وغيرهم رحلوا عنها.

ومن شعراء هذه الدولة الفاطمية، علي بن النعمان القيرواني ــ ٣٧٤هـ،

---

(١) المقريزي ــ الخطط ــ ١٣/٤٩١.
(٢) المقريزي ــ الخطط ــ ٣/٤٩١.
(٣) المقريزي ــ الخطط ــ ١/٢٥٥.
(٤) العماد الأصبهاني ــ الخريدة ــ ٢/٦٤.

والحسن بن علي بن وكيع التنيسي ـ ٣٩٣هـ، وابن محمد الإنطاكي أبو الرقعمق ـ ٣٩٩هـ، والحسن بن محمد السهواجي ـ ٤٠٠هـ، وصريع الدلاء ـ ٤١٢هـ، وابن الضيف حيدره، وأبو الصلت أمية وظافر الحداد، وعمارة اليمني وغيرهم كثيرون، ورد ذكرهم في حسن المحاضرة[١]، ووفيات الأعيان[٢]، وخريدة القصر[٣]، والمُغرب في حلى المَغرب[٤]، ويتيمة الدهر[٥]، وربما كان رخاء الدولة الفاطمية وتشجيعها للأدباء من شعراء وكتاب سبباً في هجرة الكاتب ابن أبي الشخباء إلى مصر، وهجرته من عسقلان، والعمل في ديوان المستنصر الفاطمي، وربما كان في الفتن والشدائد التي وقعت في أواخر حكم المستنصر ما يفسّر اعتقال الكاتب ابن أبي الشخباء وسجنه بخزانة البنود ثم قتله بعد ذلك، لكثرة الوشايات والفتن التي كانت بين الناس في تلك الفترة من الحكم الفاطمي.

(جـ)

الكتابة

عرفت مصر الكتابة منذ عهد الدولة الطولونية (٢٥٤ ـ ٢٩٢هـ)، ويقصد بها كتابة الإنشاء، بنوعيها: الإخوانية والديوانية. وقد نشأت الكتابة في بداية أمرها لخدمة أمور الدولة في المجالات الرسمية، وكان لكاتب ديوان الإنشاء منزلة عظيمة، «وكان لا يتولى ديوان الإنشاء والمكاتبات إلاَّ أجلّ كتّاب

---

(١) السيوطي ـ حسن المحاضرة ـ ١/٣٢٣، ٣٢٤.

(٢) ابن خلكان ـ وفيّات الأعيان ـ ١/٢٤١.

(٣) العماد الأصبهاني ـ الخريدة ـ ٢/٤٠٧.

(٤) ابن سعيد ـ المُغرب في حُلى المَغْرب ـ ت: د. شوقي ضيف ـ ٤/٩٢.

(٥) الثعالبي ـ يتيمة الدهر ـ ١/٣٨٩. كما ذكر بعض الشعراء الفاطميين في شذرات الذهب، وفي الأعلام للزركلي.

البلاغة، ويخاطب بالشيخ الأجلّ، ويقال له كاتب الدست الشريف، ويسلم المكاتبات الواردة مختومة، فيعرضها على الخليفة من بعده، وهو الذي يأمر بتذييلها، والإجابة عنها بكتاب، والخليفة يستشيره في أكثر أموره، ولا يُحجب عنه متى قصد المثول بين يديه، وهذا أمر لا يصل إليه غيره، وربما بات عند الخليفة ليالي، وله حاجب من الأمراء، وله فراشون، وله المرتبة الهائلة»[1]، ويوضح المقريزي في خططه، خطورة منصب كاتب ديوان الإنشاء، وأنه يلقب بالوزير، واختياره كان يشغل بال صاحب الأمر بمصر «لأن بكتاباته إلى الموالين والمعادين يمثل أبهة المملكة، ويعرب عن فخامتها، ويستطيع أن يجذب إليها النافر، وينزل الأعصم، بما يبني عليه كتبه من رأي حصيف وعبارة بليغة»[2].

وقد عُنيت الدولة الفاطمية بأمر ديوان الإنشاء، ويذكر «القلقشندي» في «صبح الأعشى»[3] طائفة من الكتّاب الذين ولّوا ديوان الإنشاء في ظل الحكم الفاطمي، والمدة التي قضاها كل منهم في خدمة الديوان... ويرى د. شوقي ضيف «أن المؤرخين خاصموا كتّاب الفاطميين، ولم يصفوهم وصفاً واضحاً، بسبب ما كانت عليه دولتهم من تشيع، وكان ينبغي أن يفصل هؤلاء المؤرخون بين بغضهم للفاطميين وتشيعهم، وبين تقديرهم لآثار من نشأوا في ظلال دواوينهم»[4]، وهي ملحوظة قيمة يمكن تطبيقها على ما عُرف عن

---

(١) المقريزي ــ الخطط ــ ١٣/٤٩١.

(٢) محمود مصطفى ــ الأدب العربي في مصر منذ الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الأيّوبي ــ ص ٢٣٧.

(٣) القلقشندي ــ صبح الأعشى في صناعة الإنشا ــ ٢/٨٧.

(٤) د. شوقي ضيف ــ الفن ومذاهبه في النثر العربي ــ دار المعارف ــ الطبعة الثانية ــ ١٩٧٧م ــ ص ٣٥٨.

ابن الشخباء من قيمة فنية، وما روي عنه من آثار أدبية، وما بقي من هذه الآثار، وقد كان لابن الشخباء ديوان شعر رآه صاحب الخريدة، ولم يصل هذا الديوان، وعرف عنه أنه كان يعمل في ديوان الإنشاء، ولم يصل من رسائله الديوانية إلاَّ القليل بل النادر، مثل رسالته إلى البساسيري إبَّان فتنة بغداد.

وتختلف أغراض الكتابة الإخوانية عن أغراض الكتابة الديوانية، فإذا كانت الرسائل الديوانية تتناول ما يخص ديوان الخليفة من أوامر وأحكام، ومن مكاتبات رسمية، تمس صالح الدولة، وتسيير أمورها، وتتكلم بلسان الحاكم المسؤول، وترقى بأغراضها إلى مستوى يليق بمكانة الحكومة والحكام، فإن الكتابة الإخوانية تمس عواطف الكتّاب، وعلاقاتهم الخاصة، واتصالاتهم الشخصية، وتسمى بالإخوانيات، «وكثيراً ما يكون كُتّابُها من أرباب الدواوين، على أن ذلك ليس بقاعدة مطردة، فقد نبغ من أرباب الإنشاء الأدبي جماعة ممن لم يدخلوا في خدمة الديوان مثل الهمذاني، وأبي عامر ابن شهيد الأندلسي والمعرّي والخوارزمي»[1].

والأصل في الكاتب أن يكون بليغاً فصيحاً متفنناً متأنّقاً قادراً على الإبداع والتأليف سواء أكان يكتب في ديوان الإنشاء، أو يكتب لإخوانه، ويشير ابن خلدون في مقدمته إلى ما يتمتع به كاتب الديوان من سمات «تجعله يُتخيّر من أرفع طبقات الناس، وأهل المروءة والحشمة منهم، وزيادة العلم، وعارضة البلاغة، فإنه معرض للنظر في أصول العلم، لما يعرض في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم، مع ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على

---

(١) د. أنيس المقدسي ـ تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ الطبعة السابعة ـ ١٩٨٢م ـ ص ٣٢٣.

الآداب، والتخلّق بالفضائل، مع ما يضطر إليه في الترسيل، وتطبيق مقاصد الكلام من البراعة وأسرارها»[1].

وينصح عبد الحميد الكاتب في رسالته إلى الكتّاب بوصايا يجب التحلي بها، لفهم أسرار الصنعة، والنبوغ في الكتابة إلى المكانة التي تحقق لهم الحظوة الاجتماعية والمكانة الأدبية، فيقول: «فتنافسوا يا معشر الكتاب، وتفقهوا في الدين، وابدأوا بعلم كتاب الله عزّ وجلّ، والفرائض، ثم العربية، فإنها ثقاف ألسنتكم، ثم أجيدوا الخط، فإنه حلية كتبكم، وأرووا الأشعار، واعرفوا غريبها ومعانيها، وأيام العرب والعجم، وأحاديثها، وسيرها، فإن ذلك معين لكم على ما تسمو إليه هممكم»[2].

ويذكر النويري في فنون الأدب ما ينبغي أن يكون عليه الكاتب، وما يحتاج إليه من علوم فيقول: «ينبغي أن يكون عدلاً دَيِّناً، أميناً، طلق العبارة، فصيح اللسان، حسن الخط، ويحتاج مع ذلك إلى معرفة علوم وقواعد تعينه على هذه الصناعة، لا بدّ له منها، ولا غنى له عنها، وهي أن يكون عارفاً العربية والفقه متقناً علم الحساب، وأن يكون قد أتقن صناعة الوراقة وعلم قواعدها»[3].

ويذكر ابن عبد ربه في العقد الفريد بعض فضائل الكتابة، حين يسجل قولاً لبعض المهالبة لبنيه جاء فيه: «تزيوا بزيّ الكتّاب، فإنهم جمعوا أدب

---

(١) ابن خلدون ــ المقدمة ــ ص ٢١٦.

(٢) ابن خلدون ــ المقدمة ــ ص ٢١٥.

(٣) النويري ــ نهاية الأرب في فنون الأدب ــ ط. دار الكتب ــ وزارة الثقافة والإرشاد القومي ــ المؤسّسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ــ ١/٩. يريد بالوراقة مصطلح الكتابة في مكاتبهم، والوارقة حرفة من يورق ويكتب.

الملوك، وتواضع السوقة، وقال المؤيد: كُتّاب الملوك عيونهم، وأذانهم الواعية، وألسنتهم الناطقة، والكتابة أشرف مراتب الدنيا بعد الثلاثة، وقال سهل بن هارون: الكتابة أول زينة الدنيا التي إليها يتناهى الفضل، وعندها تقف الرغبة»[1].

ويؤكد السيوطي أهمية الكاتب، في كتابه حسن المحاضرة، فيذكر أن: «الوزارة كان يليها من أرباب السيوف والأقلام على قدر ما يتفق، وكان الوزير ثاني النائب في المكانة»[2]، ويبرهن ابن رشيق في العمدة، وابن عبد ربه في العقد الفريد على أسبقية النثر على الشعر، وأفضلية الكتّاب على الشعراء، وتوضيح خطورة دور الكاتب وتأكيد خطورة الدور الذي يقوم به الكتّاب في مجال الإنشاء الديواني، وحتى في المجال الإخواني، فيقول ابن رشيق: «قد اجتمع الناس على أن المنثور في كلامهم أكثر، وأقل جيداً محفوظاً، وأن الشعر أقل، وأكثر جيداً محفوظاً، لأن في أدناه من زينة الوزن والقافية ما يقارب به جيد المنثور، وكان الكلام كله منثوراً، فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها، فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلما تم لهم وزنه سموه شعراً، لأنهم شعروا به، أي: فطنوا»[3].

ويذكر ابن رشيق ـ أيضاً ـ «أن ما تكلمت به العرب من جيد المنثور

---

(١) ابن عبد ربّه ـ العقد الفريد ـ ت: أحمد أمين، وأحمد الزين، وإبراهيم الأبياري ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ٤/ ١٧٩.

(٢) السيوطيّ ـ حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم ـ الطبعة الأولى ١٩٦٨م ـ عيسى البابي الحلبي ـ دار إحياء الكتب العربية ـ الجزء الثاني ـ ص ١٥٣.

(٣) ابن رشيق ـ (العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده)، ت: محمد محي الدين عبد المجيد ـ دار الجيل للنشر والتوزيع ـ بيروت ـ ١/ ٢٠.

أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره، ولعلّ بعض الكتّاب المستنصرين للنثر الطاغين على الشعر، يحتج بأن الشعراء أبداً يخدمون الكتّاب، ولا تجد كاتباً يخدم شاعراً»[1].

ومن الواضح أن معظم هذه الآراء التي تأخذ شكل الأحكام النقدية العامة، غير صائبة علمياً، وفي حاجة إلى نظر وتبديل لتصحيح بعض هذه المفاهيم التي يبدو فيها التعصّب للكتابة وللكتّاب، وتفضيل النثر على الشعر، ولم يكن الشعر أقل من النثر في أي مرحلة من مراحل العصور الأدبية، علماً بأن آراء أخرى كثيرة تؤكد سبق الشعر إلى المجال الفني، والإبداع الأدبي، كما أنه من غير المعقول أن المنثور لم يحفظ منه عُشره، ومن غير المعقول ـ أيضاً ـ أن الموزون لم يفقد عُشره، وما وصل إلى التدوين إلاّ أقلّه، ولو وصل كل الشعر لكان له شأن آخر، وأين قولهم من قول ابن سلام في طبقات فحول الشعراء «لما كثر الإسلام وجاءت الفتوح، واطمأنّت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر، وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقلّ ذلك وذهب عليهم منه كثير»[2]. ويضيف ابن سلام دليلاً آخر على ضياع معظم الشعر العربي وهو: «قلة ما بقي بأيدي الرواة المصححين لطرفة وعبيد بن الأبرص اللذين صح لهما قصائد بقدر عشر»[3].

ونعود إلى ابن عبد ربه ثانية فنراه يؤكد شرف الكتّاب وفضلهم، ويستشهد بما جاء في القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿علّم بالقلم * علّم الإنسان

---

(١) ابن رشيق ـ العمدة ـ الجزء الأول ـ ص ٢١.

(٢) ابن سلام ـ طبقات فحول الشعراء ـ ت: محمود شاكر ـ ص ٢٢.

(٣) ابن سلام ـ ص ٢٣.

ما لم يعلم﴾، وقوله تعالى: ﴿كراماً كاتبين﴾ وقوله: ﴿بأيدي سفرة* كرام برررة﴾، ويرى للكتّاب أحكام بينة، كأحكام القضاة، يعرفون بها، وينسبون إليها، ويتقلدون من التدبير وسياسة الملك دون غيرهم، وبهم يقام أمر الدين، وأمور العالمين»[1].

ويؤكد «محمد كردعلي» في أمراء البيان قيمة الكتّاب وتفضيلهم على الشعراء، ويذكر أن الملوك من بني العباس رفعوا كُتّابهم إلى الوزارات، وقلما رفعوا شاعراً لشعره، لأن الشعر خيال وحس، والكتابة عقل وحقيقة، وحاجة الممالك في تدبيرها إلى العقول أكثر من احتياجها إلى العواطف، والعلوم على اختلاف فروعها تكتب نثراً»[2] كما يذكر صاحب أمراء البيان ــ أيضاً ــ أراء ابن قتيبة وابن سنان وابن خلدون، وتدور كلها حول تفضيل الكتّاب على الشعراء، وحول توضيح أهمية الكتابة وخطورة شأنها ومنزلة أصحابها.

ويزيد أهمية الكتابة والكتّاب، طبيعة العصر الفاطمي، واهتمام الخلفاء الفاطميين بالعلم وبالأدب، ساعدهم على ذلك ما جُبل عليه الحكام الفاطميون من منافسة مع الحكام العباسيين في بغداد، فأكثروا في الإغداق على الشعراء والكتّاب بالهدايا والصلات، كما أن معظم الخلفاء الفاطميين كان لهم اهتمام بالعلم والأدب، وأنشأ الفاطميون المكتبات العامة وعملوا على تكديسها بالكتب والمصادر، وعرفت في عهدهم خزانة الكتب، «وقد بلغ

---

(١) ابن عبد ربّه ــ العقد الفريد، ٤/١٦٠.

(٢) محمد كرد علي ــ أمراء البيان ــ الطبعة الثالثة ــ ١٩٦٩م ــ دار الأمانة ــ بيروت ــ تقديم د. سامي الدهان.

عدد الكتب بهذه الخزانة ما يربو على ألف ألف مليون وستمائة ألف كتاب في الفقه والنحو واللغة والتاريخ والروحانيات»[1].

وعرفت في العهد الفاطمي أيضاً دار الحكمة ــ وتسمى دار العلم، وقد أنشأها الحاكم بأمر الله، وكانت تدور فيها المناظرات بين العلماء أسوة بما كان يفعله المأمون في عصره، وكان يخلع على العلماء الخلع، وعني الفاطميون بديوان الإنشاء، ولم يفرّق الفاطميون بين مسلم وذمي في وظائف ديوان الإنشاء، وكانوا يطلبون لهذا الديوان من تفوّق في تحبير الكلام وصوغه دون تفريق بين من هم من دينهم، ومن هو في غير دينهم»[2].

لقد أسهمت العوامل السابقة جميعها في الارتقاء بفن كتابة الرسائل في العصر الفاطمي، فقد بلغ هذا الفن في ذلك العصر مبلغاً عظيماً من الرقي والازدهار، وقد نبغ فيه كثير من الكتّاب الذين عرفوا بالجودة في كتابة الرسائل الإخوانية، ومنهم العميدي، وأبو الظاهر النهركي، وابن الصيرفي، وابن أبي الشخباء.

ولعل في تلك الآثار التي جاد التاريخ بحفظها من رسائل ابن أبي الشخباء الإخوانية ما يفسر طابع فنه في الكتابة الإنشائية ويضفي ضوءاً على الكتابة الفنية في ذلك العصر الفاطمي، وقدرة هذه الرسائل على تصوير العصر وطوابعه الفنية والاجتماعية، وتصوير أصحابها من الكتّاب.

● ● ●

(١) يراجع في ذلك تراجم الحكماء للقفطي، والتمدن الإسلامي لجورجي زيدان ــ ٣/٢٠٩، ود. شوقي ضيف ــ في الفن ومذاهبه في النثر العربي ــ ص ٣٣٥، والخطط للمقريزي، ومفاتيح العلوم للخوارزمي، ص ٧٨، والسيوطي في حسن المحاضرة...

(٢) د. شوقي ضيف ــ الفن ومذاهبه في النثر العربي ــ ص ١٠.

ثانيًا

الموضوعات في رسائل ابن أبـي الشخباء الإخوانية

المضامين وتصوير شخصية الكاتب

(أ)

المضـامين

احتفظت بعض مصادر الأدب بمجموعة غير قليلة من رسائل ابن أبي الشخباء الإخوانية، ولم تحتفظ هذه المصادر أو غيرها، برسائل ابن أبي الشخباء الديوانية، اللهم إلا بعض الرسائل القليلة التي لا تمثل صورة الكاتب ولا توضح طبيعة الكتابة الديوانية عنده.

وعُرف ابن أبي الشخباء بكثرة الرسائل الإخوانية، ولعل هذه المعرفة جاءت من نوعية الرسائل التي حفظتها مصادر الأدب، وغياب أو ندرة اللون الآخر من الرسائل، مع العلم بأن ابن أبي الشخباء كان من كتّاب الديوان في عهد المستنصر الفاطمي. ورويت له بعض الرسائل التي كلّف بها من الديوان الفاطمي مثل رسالته إلى «البساسيري».

وقد ادى «ابن بسّام» خدمة واضحة حين سجل عدداً لا بأس به من رسائل ابن أبي الشخباء الإخوانية، بلغ عددها السبع والعشرين رسالة، ورسالة ديوانية واحدة كتبها ابن أبي الشخباء، على لسان الوزير الناصري

الفاطمي[1]، إلى بعض القبائل يحثهم على الطاعة، والعودة إلى أمر السلطان، والابتعاد عن الخلاف والانحراف وأولها: «معلوم أن الله تعالى قد يأذن للنعم إذا خُصّت بالشكر أن تستدني البعيد القصي، وتستأنس النافر الوحشي، وإذا قرنت بالكفر أن يرحل منها القاطن، وتستوحش المعاطن...»[2].

وأورد ياقوت الحموي في معجم الأدباء ست رسائل تختلف عن الرسائل التي ذكرها ابن بسام في الذخيرة، ولا تتفق معها إلا في رسالة واحدة وهي التي كتبها ابن أبي الشخباء إلى أبي الفرج الموفقي وأولها: «وصلت رقعة مولاي والصبح قد سل على الآفاق مقضبه، وأزال بأنوار الغزالة غيهبه، فكانت بشهادة الله صبح الآداب، ونهارها، وثمار البلاغة وأزهارها...»[3].

ولم يذكر ابن خلكان في وفيات الأعيان رسائل لابن أبي الشخباء، واكتفى ببعض أشعاره، في حين يضيف الصيرفي في الأفضليات رسالة لابن أبي الشخباء، قدّم لها بقوله: «ومن كلام حسن بن عبد الصمد المعروف بابن أبي الشخباء، قوله، وذكر الرسالة وهي مسجلة في الذخيرة وأولها: «غير بدع من الزمان أن تنكث حباله، وتصدر نباله، وتفهق بالغدر فجاجه، ويجدح بالسم أجاجه، وتراش في قصد الكرام سهامه، ويثار في قبض النفوس

---

(١) لعله ناصر الدولة الحمداني الذي استولى على أكثر أمور مصر أيام المستنصر وقتل سنة ٤٦٥هـ.

(٢) ابن بسّام ـ الذخيرة ـ القسم الرابع ـ المجلد الثاني ـ ت: د. إحسان عباس ـ ص ٦٤٤.

(٣) ياقوت ـ معجم الأدباء ـ الجزء التاسع ـ ص ١٥٧ ـ والذخيرة لابن بسّام ـ ٦٥٤/٤.

عجاجه»[1] ويكثر الصيرفي في الأفضليات ذكر أشعار ابن أبي الشخباء، وتأتي أهمية خريدة القصر وجريدة العصر للأصبهاني في تسجيل أشعار ابن أبي الشخباء وهي في حاجة إلى جمع ودراسة، وفي السجلات المستنصرية عدد لا بأس به من رسائل ابن أبي الشخباء الديوانية.

والرسائل الإخوانية تدور حول «مخاطبة الغائب بلسان القلم، وفائدتها أوسع من أن تحصر من حيث أنها ترجمان الجنان، ونائب الغائب في قضاء أوطاره، ورباط الوداد مع تباعد البلاد، وطريقة المكاتبة هي طريقة المخاطبة البليغة مع مراعاة أحوال الكاتب والمكتوب إليه والنسبة بينهما»[2].

وتظهر شخصية الكاتب في رسائله الإخوانية، حيث تفصح عن قسماته النفسية، وتكشف عن دقائق أسراره الخاصة، وفيها يكون الكاتب ـ غالباً ـ أقرب إلى الطبيعة والسجية عنه إلى التكلّف والتصنّع، وحين يخط رسالة ينفذ فيها أمر الديوان، يتحدث بلسان غيره، ويتقمص شخصية أكبر منه أو مختلفة عنه، وربما كان في هذه الأوامر السلطانية، ما يتنافى وطبع الكاتب، ومن الصفات ما لا يأنس له، ولا يحتفى به، ولكنه يطيع ما يؤمر به، أما الكاتب في رسائله الإخوانية «فيطلق العنان للأقلام، ويتجانس عن الكلفة، ويعدل عن الانقباض، وقد قيل إن الأنس يذهب المهابة، والانقباض يضيع المودة»[3].

وتفنّن الكتّاب في إنشاء رسائلهم الإخوانية، ومنها ما يعرف برسائل

---

(١) ابن الصيرفي ـ الأفضليات ـ ت: د. وليد قصّاب ـ د. عبد العزيز المانع ـ دمشق ـ ١٩٨٢م ـ الطبعة الأولى ـ ص ٣٢٠.

(٢) السيد أحمد الهاشمي: جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب ـ مكتبة المعارف ـ بيروت ـ ١/٤٤.

(٣) الهاشمي ـ جواهر الأدب ـ ١/٤٥.

الشوق التي يعبر الكاتب فيها عن مودته وشوقه لأحد أخوانه، واشتهر في هذا اللون رسائل أبي منصور الثعالبي والبسطامي، وابن العميد والهمذاني والخوارزمي، وأخرى تدور حول التعارف قبل اللقاء ومنها رسائل الثعالبي، وثالثة تعرف برسائل الهدايا، ورابعة عرفت برسائل الاستعطاف، وأخرى رسائل الاعتزاز، وحسن التقاضي والطلب، ورسائل العتاب، ورسائل الشكر، ورسائل النصح والمشورة، ورسائل الشكوى والعيادة والسؤال عن المريض، ومن الرسائل الإخوانية ـ أيضاً ـ رسائل التهاني، التهنئة بقدوم مولود، أو تهنئة بحلول شهر الصيام، أو تهنئة بمقدم عيد الفطر، أو تهنئة بالنصر، أو بالشفاء من علّة. ومن الرسائل أيضاً رسائل التعازي والتأبين، ورسائل الوصايا والنصائح، ورسائل جوابية، يجيب فيها الكاتب عن رسالة وردت إليه.

ويختار الكاتب اللون المناسب لغرضه، كما يختار لكل لون العبارات التي تليق والمناسبة، «ولا بد من مراعاة مقتضى الحال، والاعتصام بركن الفطنة أخذاً بقول أبي الأسود الدؤلي:

لا ترسلن رسالة مشهورة لا تستطيع إذا مضت إدراكها»[1]

وتبدو براعة الكاتب في استخلاص الأساليب العربية الخاصة باللون الذي يكتب فيه، وبالشخص الذي يكتب إليه.

ويظهر ابن أبي الشخباء من خلال رسائله كاتباً متنوعاً، فلم يقتصر على لون واحد، أو غرض معين، بل تعددت أغراضه وقاربت الخمسة عشر غرضاً، كما تفاوت عدد رسائله بين لون وآخر، ففي غرض مثل المدح والدعاء وطلب العطاء عثر له على خمس رسائل، وفي التهنئة بلغت رسائله أربعاً، وفي

---

(١) الهاشمي ـ جواهر الأدب ـ ١/٤٥.

أغراض أخرى مثل الشكوى من الزمان أو النصح والوصايا لم يعثر له على أكثر من رسالة واحدة.

ومن المعروف أن رسائل ابن أبي الشخباء الإخوانية التي خضعت لهذه الدراسة ليست كل رسائله، ولا يعرف على وجه الدقة والتحديد نسبة ما تصل إليه هذه الرسائل إلى مجموع رسائله التي كتبها بالفعل، أو نسبة ما عثر عليه من رسائل إلى ما فقد منها وضاع، ومما يؤكد ضياع معظم رسائله أنه لم يعثر على أكثر من رسالتين ديوانيتين له، غير ما ذكر في السجلّات المُستنصرية ولم تنسب إليه ــ صراحة ــ علماً بأنه من كتّاب الديوان الفاطمي في ظل المستنصر، وأن حرفته الأولى ومصدر رزقه الأساسي العمل في ديوان الإنشاء، وربما وقع الكاتب ورسائله تحت متغيرات سياسية وأهواء عقائدية، وشائعات نتيجة الفوضى والاضطراب إبّان الشدّة المُستنصرية، وأودت بحياته، بعد اعتقاله، ــ كما سبق الذكر ــ فلم يهتم بتسجيل رسائله غير الإخوانية والاجتماعية، التي تمثل اتجاهه الفني في الكتابة، كما أن له أشعاراً كثيرة يظهر فيها طابعه، وتحدد موقعه بين الشعراء الوافدين إلى مصر.

وهناك رسائل لابن أبي الشخباء لم يذكر فيها اسمه ولكنها له على التحقيق، ومن ذلك رسالة الخليفة المستنصر إلى أبي الحسن علي بن محمد بن علي الصليحي يعلمه فيها بما تم من النصر على المتمردين[1]، ومن ذلك الرسالة التي كتبها ابن أبي الشخباء يهنىء فيها الوزير ابن المغربي وزير المستنصر بالنصر فهي أيضاً رسالة ديوانية[2]، ومن ذلك رسالة التهنئة

---

(١) السجلّات المستنصرية ــ ص١٨١، ص ١٨٥.

(٢) انظر: معجم الأدباء ــ ١٧١/٩ ــ ١٧٥.

والبشرى بولادة مولود للخليفة التي تظن أنها لابن أبي الشخباء[1]، ومن ذلك رسالته حينما كسر (أتسز) التركماني[2]، ومن ذلك الرسالة التي نجزم أنها لابن أبي الشخباء التي كتبها على لسان الخليفة المستنصر إلى الحرة الصليحية[3].

ولعل في هذه الإحصائية البسيطة التالية، ما يوضح نوع الرسائل وعددها والمصادر التي يمكن الرجوع إليها للتعرف على رسائل ابن أبي الشخباء الإخوانية.

---

(١) السجلّات المستنصرية ـ ص ٤٥ ـ ٤٧.

(٢) معجم الأدباء ـ لياقوت ٩/١٦٣، ١٦٤.

(٣) السجلات المستنصرية ـ ص ١٨٠، ١٨١.

نوع الرسالة	المصدر	أرقامها	العدد
مدح ودعاء وطلب العطاء	الذخيرة	الثالثة عشرة والرابعة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة والتاسعة عشرة	خمس رسائل
السخرية والتهكم والاستهزاء	الذخيرة	الثالثة والرابعة والسادسة والسابعة	أربع
الشوق والمودة	معجم الأدباء	الأولى والرابعة	اثنتان
المواساة والتعزية	الذخيرة	الخامسة والخامسة والعشرون	اثنتان
شهر رمضان	الذخيرة	الثالثة والخامسة عشرة	اثنتان
شكوى الدهر	الذخيرة	الحادية عشرة	واحدة
أدبية وصفية	الذخيرة معجم الأدباء	الرابعة والعشرون الثانية (مكررة)	واحدة
ديوانية	الذخيرة	التاسعة	واحدة
التهنئة	الذخيرة معجم الأدباء	الثانية عشرة والثالثة والعشرون الثالثة والخامسة	أربع
اعتذاريات وطلب الشفاعة	الذخيرة	الثانية والثالثة عشرة والسادسة والعشرون	ثلاث
الشكر	الذخيرة معجم الأدباء	العاشرة السادسة	اثنتان
العتاب	الذخيرة	الأولى والواحدة والعشرون	اثنتان
رد جوابية	الذخيرة معجم الأدباء	الثانية والعشرون الثانية (مكررة)	واحدة
نصح ووصايا	الأفضليات	الأولى	واحدة
مقامة	الذخيرة	العشرون	واحدة
«مجموع الرسائل الكلي = اثنتان وثلاثون رسالة»			

ويبدو من هذه الإحصائية السابقة ندرة الرسائل الديوانية المحققة والمنسوبة إلى الكاتب صراحة قياساً بالرسائل الإخوانية، فلم يسجل لابن أبي الشخباء غير رسالة واحدة بعث بها إلى بعض القبائل المتمردة على لسان الوزير الناصر فضلاً عن بعض قوله في رسالته إلى«البساسيري»زمن الفتنة ببغداد والدعوة إلى الخليفة المستنصر بالله على منابر بغداد.

وتكثر الأقوال التي تؤكد اعتماد «القاضي الفاضل» على خطب ابن أبي الشخباء ورسائله، وانتهاج منهجه الفني في الإنشاء، وحفظه لأكثر ما أبدعه ابن أبي الشخباء، وحظي القاضي الفاضل تلميذ ابن أبي الشخباء بمكانة عظيمة، فقد حافظت مصادر الأدب على إنتاج القاضي الفاضل الفني شعراً ونثراً، بينما لم يحظ أستاذه أو معلمه ابن أبي الشخباء بهذه المكانة، ولم يعثر على خطبة واحدة من خطب ابن أبي الشخباء، التي حفظها القاضي الفاضل وتأثر بها. ويبدو أن ابن أبي الشخباء لم يكن من كُتّاب الديوان المشهورين في زمن الخلافة الفاطمية، كما يبدو من حديث«القلقشندي»في صبح الأعشا، فلم يشر إليه، حين يذكر من تَوَلّى ديوان الكتابة في الزمن الفاطمي حين يقول: «ولما ولي الفاطميون الديار المصرية، صرفوا مزيد عنايتهم لديوان الإنشاء وكتّابه، فارتفع بهم قدره، وشاع في الآفاق ذكره، وولي ديوان الإنشاء عنهم جماعة من أفاضل الكتّاب وبلغائهم ما بين مسلم وذمي»[1]، ويذكر«القلقشندي»أسماء الذين كتبوا للمستنصر الفاطمي ومنهم القاضي ولي الدين بن خيران، ثم ولي الدولة موسى بن الحسن، وأبو سعيد العميدي، ويبدو أن ابن أبي الشخباء كان ممن يعملون تحت إمرة هؤلاء الكتّاب، فلم يكن من رؤساء الديوان بل كان يعاون مع مجموعة من كتّاب الرسائل تختلف درجاتهم وهيئاتهم الفنية.

(١) القلقشندي ـ صبح الأعشا في صناعة الإنشا ١/٩٦.

وتتضح مكانة ابن أبي الشخباء الفنية من خلال رسائله الإخوانية، ولولا هذا القدر الذي حُفِظ، لضاعت صورة ابن أبي الشخباء في النثر الفني، ولا تبقى غير صورته في الشعر، ويبدو من الإحصائية السابقة أيضاً أن أكثر رسائله كانت في الدعاء والمدح وطلب العطاء استناداً إلى الرسائل التي وصلت إلينا محققة، وهو أمر طبيعي عند أمثاله من الشعراء أو الكتّاب، فهم يمدحون الخلفاء والأمراء والقواد، يمدحون من بأيديهم القدرة على المنح والعطاء، فيكسبون بنثرهم، ويتكسبون بشعرهم. والكاتب ينهج النهج ذاته في رسائله حين يمدح ويدعو ويطلب العطاء. وظروف الدولة الفاطمية مشجعة على المدح وعلى العطاء، للدعوة إلى المذهب، وإظهار الخلفاء في الصورة التي تجذب إليهم الأدباء، وتلفت إليهم اهتمام المشرق والمغرب، كما غلب على معظم الأشعار التي رويت عن ابن أبي الشخباء. وكثيراً ما كان يستعان بشعره في المدح في رسائله، حيث أن الشعر يحتمل المدح أكثر مما يحتمله النثر، أو أن الطلب في النثر لا يصرح به تصريحه في الشعر. ولم يكتب ابن أبي الشخباء رسائله في الطلب إلاّ لأصحاب الحظوة والسيادة في زمنه. وقد أورد ابن بَسّام في الذخيرة[1]، وياقوت في معجم الأدباء[2]، بعض رسائل ابن أبي الشخباء خاصة إلى صارم الدولة بن معروف، وهو من قواد العصر الفاطمي...

ويستهل ابن أبي الشخباء رسالة العطاء هذه بقوله: «أطال الله بقاء الحضرة السامية الصارمية، ما عظم رجب في الإسلام، وولج الضياء في الظلام، ووُشِّيَت الطروس بأسنة الأقلام:

---

(١) ابن بسّام ــ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ــ ٤/٦٤٣.

(٢) ياقوت ــ معجم الأدباء ٩/١٧٥.

وإذا عصيت نوب الزمان وخالفت وقفت لديك مواقف الخُدَّام

إذ كانت أيام الحضرة العالية، شاهدة لها بجود يريش أجنحة الكرام المقصوصة، ويقوم بفرائض المجد المنصوصة، وحلم تطلق القدرة عنانه، ويستعير الجنان رجحانه، ووفاء يعلم الدهر حفظ العهود، وينقل طبعه إلى الخلق المحمود، ورأي يقطع والسيوف مغمدة، ويسري والعوذ العتاق مقيدة، وبشر يخجل ضوء الشارق، ويضيء في جبينها إضاءة البارق، وجود تأمر حكامه الزمان، وينتصر بالصارم ذي الفضائل، لا الصارم ذي الحمائل. . .

وفت بشروط الجود في المحل كفّه ومُزن السحاب الجود للأرض خائن
ولولا الذي قدمت من حسناته لما وجدت للدهر فينا محاسن

. . .»[1].

ومن رسائل ابن أبي الشخباء الإخوانية في المدح وطلب العطاء رسالته إلى صارم الدولة ــ أيضاً ــ يقول فيها: «أطال الله بقاء الحضرة السامية معمورة بموفور السعادة ديارها، مشدودة إلى قصدها أنساع العير وأكوارها، مغلولة عنها أنياب النوب وأظفارها ولا زال من مد الظل ولو شاء جعله ساكناً[2]، يمدّ عليها الظل ما سرى في الليل سفر، وطلع في السماء غفر[3]، وخرج عن أيدي الكرام وفر، وأنس بالركبان مهمه قفر. . .»[4].

والكاتب ابن أبي الشخباء ــ في الرسالتين السابقتين ــ لم يخرج عن

---

(١) الرسالة كاملة في الذخيرة لابن بسّام ٤/٦٤٤.

(٢) من قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى ربّك كيف مدّ الظل ولو شاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً﴾ (سورة الفرقان: الآية ٤٥).

(٣) الغفر: منزل من منازل القمر، ثلاثة أنجم صغار وهي من الميزان.

(٤) الرسالة كاملة في الذخيرة لابن بسام ٤/٦٤٥.

المعاني المألوفة، التي تعوّد شعراء المديح النظم فيها. وهو لم يضف جديداً، ولم يتعمق في فكرة، ولم يذكر للممدوح صفات خاصة به، تميّزه عن غيره، أو بها يعرف، فهو يدعو للممدوح بطول البقاء، ويصفه بالجود، وبكونه من أهل المجد، ويصفه بالحلم والعقل الراجح، ويصفه بالوفاء وحفظ العهود، والخلق المحمود، ويصفه بأنه من أصحاب الرأي القاطع، وبالبشر والطلاقة، ثم يعود ليدعو له مرة أخرى في ختام رسالته، بعد أن يضع كثيراً من نظمه في ثنايا رسالته. ولم يخرج الشعر في معانيه عما ذكره الكاتب في نثره، وجاء شعره مؤكداً المعاني التي ألحّ عليها في رسالته، وتفنن في رصّها وتصنيفها. ويبدو أن الكاتب كان ينظم أبياته في المديح، قبل أن يكتب رسالته، ثم يقدم لها ببعض أساليبه وجمله ويبعث بها إلى الممدوح الذي يرغب في مكاتبته وفي مدحه وفي طلب العطاء منه، ولم يكن ذلك صفة عامة ولكن في بعض رسائل العطاء...

وهو في شعره يصف الممدوح بالقوة والصرامةُ متلاعباً باسم الممدوح، وبالجود في زمن الجدب، وحين يخون السحاب، فيبشر وجهه بالخير الكثير.

فيا صارماً أثنت عليه عداته ... وأصدق من يثني العدو المباين
يضيف إلى إنعامه بشر وجهه ... كما جمع الحكمين في الجمع قارن

وقد تتعارض الأفكار في بعض أشعار ابن أبي الشخباء مع نثره في مواطن قليلة، منها ما جاء في رسالته السابقة من وصفه ممدوحه بالانتصار بالرأي والقتال بالكلمة، وأنه يفضّل صارم الفضائل على الصارم الحقيقي، ثم يعود في شعره فيُحيل الصارم سيفاً يقاتل به، فقد قال نثراً: «ورأي يقطع والسيوف مغمدة، لينتصر بالصارم ذي الفضائل، لا الصارم ذي الحمائل، ثم يعود في رسالته ذاتها ليقول فيا صارماً أثنت عليه عداته...

وربما لا يقصد الشاعر بالأعداء الذين يقاتلون الممدوح، ويشتركون معه في معركة، ولعله يقصد بالأعداء الحاقدين والحساد، وفي هذه الحالة لا نجد تعارضاً فيما يذكره الكاتب في نثره، وفي شعره.

ويبدو ابن أبي الشخباء في بعض رسائله، وكأنه ينثر نظمه، أو ينظم نثره، وقد لا يختلف المعنى الذي يرمي إليه في النثر عن الشعر، إلا في الصياغة وزناً وقافية، فيقول في نثره: (بشر يخجل ضوء الشارق، ويضيء في جبينها إضاءة البارق...) يقول في شعره:

يضيف إلى إنعامه بشر وجهه .....

وعندما يصفه في نثره: «يجود بريش أجنحة الكرام، يقول في شعره:

وفت بشروط الجود في المحل كفه .....

وكأنه يريد أن يدفع الملل والسأم من تكرار المعاني ذاتها، فينوّع في الصياغة ولا يُنوّع في الدلالة المعنوية، فالجود (في نثره) يريش أجنحة الكرام، والجود (في نظمه) أكرم من مزن السحاب.

ويغلب شعر ابن أبي الشخباء نثره في بعض الرسائل، كما ورد في رسالة الدعاء الثانية، التي أشير إلى بعضها سابقاً، فيقوم النثر بوظيفة افتتاح الرسالة، وبختامها، وبالدعاء والتحميدات المألوفة، ويقوم الشعر بالتعبير عن أفكار الكاتب كلها، ويجد الكاتب نفسه في نظمه قادراً على التعبير عن معاني المدح أكثر منه في نثره. وربما مرجع ذلك طبيعة الغرض نفسه وهو المدح، والشعر أحفظ لماء الوجه من النثر، وأبقى لكرامة الأديب، ولم يكن ذلك شائعاً في رسائل الكاتب كلها، بل في رسائل المدح وطلب العطاء، دون غيرها.

* * *

وتأتي رسائل ابن أبي الشخباء في التهنئة في المرتبة التالية لرسائل المدح وتشاركها في المرتبة رسائل السخرية والتهكم من حيث العدد، ومن حيث ارتباطها برسائل المدح وطلب العطاء. فإن الهدف عند الكاتب واحد في اللونين، فينتهز الفرصة ليهنىء الشخصية المرموقة، فيرى الفرصة سانحة لطلب العطاء، بينما كان في رسائله الأولى لا يجد مناسبة غير أن يمدح، وابن أبي الشخباء في رسائل التهنئة لم يكن تقليدياً، ولم ينتهز المناسبة العادية، ولم يهنىء أشخاصاً عاديين، بل كان يهنىء أشخاصاً معروفين، يحتلون مراكز مرموقة، وربما يرجع ذلك إلى طبيعة عمله وإلى كونه من كتّاب الديوان الفاطمي، ولعله كتب رسائل أخرى لم تصل وضاعت فيما ضاع من رسائله، وهو احتمال ضعيف نظراً لطبيعة الرسائل التي أمكن حفظها في التهنئة، وهي تبلغ أربع رسائل، وجميعها في شخصيات كبيرة، وفي مناسبات جليلة، تتعلق بالنصر وبالفتح، أو بالعودة إلى كرسي الوزارة، وتتعلق كلها بأمور سلطانية.

ويذكر ابن بسّام في الذخيرة رسالتين لابن أبي الشخباء في التهنئة، ويذكر ياقوت في معجم الأدباء رسالتين أخريين في التهنئة أيضاً، تختلفان عما ذكره ابن بسّام. والرسالتان اللتان ذكرهما ابن بسّام، إحداهما في تهنئة الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي[1] بالشفاء والعافية، والأخرى في تهنئة وزير قبض عليه وقت الظهر، وأفرج عنه في العشاء الآخرة[2]. والرسالتان اللتان ذكرهما ياقوت في معجم الأدباء إحداهما يهنىء فيها ابن أبي الشخباء بكسر

---

(١) الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي، تولّى الوزارة حين مرض والده سنة ٤٨٧هـ، زمن الإمام المستنصر، وظل على الوزارة في أيّام المستعلي ثم الآمر إلى أن اغتيل سنة ٥١٥هـ، (الإشارة إلى من نال الوزارة) ص ٥٧ ــ ٦٤، ابن خلدون ٤/ ٧٠.

(٢) الرسالة كاملة في الذخيرة لابن بسّام ٤/ ٦٥٣.

أتسز بن أوق الغزي[1]، والأخرى كتبها إلى ابن المغربي يهنئه بالفتوح[2]، ويمكن أن تندرج هذه الرسائل تحت إطار الرسائل الديوانية . . .

إن طبيعة الموضوع في رسائل التهنئة أشبه بالرسمية، والأشخاص الذين يهنئهم الكاتب ليسوا من عامة الشعب، ومع هذا كان الكاتب في رسائله عادياً لم يصل إلى المستوى الذي يليق بالمناسبة، أو بالشخص الذي يكاتبه، فكان كاتباً أديباً مدّاحاً، أكثر منه مؤرخاً وصّافاً أو ناقداً محلّلاً مفسّراً، فلم يوضح الكاتب في رسالته التي يهنىء فيها الوزير بالعودة إلى منصبه بعد إقالته، السبب الذي من أجله أقيل، أو الظروف التي عاد فيها، ولم يذكر مَنْ صاحب القرار في الحالتين، وكان الأجدر بالكاتب إن أراد أن يضفي على رسائل التهنئة قيمة تاريخية أن يوضح مثل هذه الأمور، حتى يستفاد المؤرخ، ولكن طبيعة المدح غلبت عليه، ورغّبته في نيل العطاء، غلب عليه هذا كله أكثر مما كان يجب أن يكون عليه الكاتب الملتزم.

والمعنى الذي صاغه الكاتب نثراً في رسالته يدور حول كرم الله وجميل صنعه الذي مَنَّ على صاحبه بأن يعود إلى منصبه، فقد زالت الخطوب، وابتعدت النوائب، ورجع إلى داره بالسعد، والوزارة تدعو له، وتدعوه، وقد حزنت لبعده، وفرحت بعودته، ثم يختم رسالته بحمد الله: (على ما منّ من سرعة الإقالة، واقتضاب تلك الحبالة، وتفضل به من حسن الرعاية والكفالة)[3].

---

(١) أتسز بن أوق الخوارزمي التركماني، صاحب الشام ومقدّم الأتراك ظهر سنة ٤٦٣هـ، وفتح الرملة، وبيت المقدس وضايق دمشق وضرب الشام، وفي سنة ٤٦٨هـ، استولى على دمشق وخطب بها للخليفة المقتدي العباسي، وقتله تاج الدولة تتش السلجوقي سنة ٤٦٨هـ، واستولى على الشام.

(٢) الرسالة في معجم الأدباء ـ لياقوت ١٧١/٩.

(٣) الذخيرة ـ لابن بسام ٦٥٤/٤.

ويظهر تكلف ابن أبي الشخباء في بيتين من نظمه، يصف فيهما الثرى والندى والريح، والجو والحشايا الطيبة التي تشعر بها الوزارة بعد أن عاد إليها صاحبها.

وفي رسالة التهنئة الثانية التي يهنىء فيها ابن أبي الشخبائ بكسر أتسز بن أوق الغزي يسير الكاتب على النهج الذي نهجه في رسالته السابقة، رغماً من خطورة الموضوع، وأهمية الحدث التاريخي، وكان الأجدر بالكاتب أن يصوغ الحدث التاريخي صياغة أدبية، يعرف القارىء ما فعله المتمرد أتسز، وما سر الخلاف والخروج عن الإجماع الفاطمي، ويوضح الخطة التي أودت به، والآثار التاريخية المترتبة على موقفه ومقتله، إسلامياً وعربياً، في المنطقة الشامية والمصرية، ولكن الكاتب لم يسع إلى هذا، ولم يحاول أن يسعى إليه، مع أنه أطال في رسالته وأكثر من تضمين آي القرآن الكريم، ولم يذكر فيها شيئاً من نظمه. ويبدو أن شعره لم يسعفه في تصوير الحدث، وهو الذي يهتم به في مجال المدح والشكر، فلم يجد الكاتب أمامه غير أن يقول: «قد ارتفع الخلاف بين الكافة أن الله ذخر للدولة الفاطمية، ثبت الله أركانها ــ من الحضرة المليّة المنصورة الجيوشية ــ خلّد اللَّهُ سلطانها، من حمى سوادها، ونصر أعلامها، وضم نشرها، وحفظ سريرها، ومنبرها، بعد أن كان الأعداء الذين ارتضعوا در أنعامها، وتوسموا بشرف أيامها، وكفروا بسوابغ الآلاء، فاستباحتهم يد الشدائد»[1] ويذكر ابن أبي الشخباء في إشارة خفيفة المتمرد «أتسز»، ويصفه باللعين، ويصف عمله بالفساد، وتعدي لحدود الله وكلماته، ولهذا فيقع تحت سخطه ونقمته، ولم ينجح في هدفه الذي كان يسعى إليه، في انفصال الدولة الفاطمية، التي جردت له من عزماتها

(١) ياقوت ــ معجم الأدباء ١٦٤/١٦٥.

الماضية ما عجل بدماره، وحقق انكساره، ويصور الكاتب الأرض، وقد كسيت بدماء الشهداء بحلة عسجدية، وقد هرب المخذول، ونهب ما كان معه، وقتل ركبانه ورجاله، والفضل ــ في دلك كله ــ يرجع إلى الله تعالى، الذي اعتنى بالدولة الزاهرة عناية ظاهرة، ويختم الكاتب رسالته المطولة بالإشادة بالدولة وبسلطانها وبقوادها، ويهدد أعدائها، ويوضح فضل هذه الدولة في إعادة شمل الأمة.

وفي رسالة ثالثة يهنىء فيها ابن المغربي بالفتوح، ويدعو للوزير بطول البقاء، ويمدحه بالرأي الصائب وبالشجاعة النادرة، ويوضح غرض الرسالة في قوله: «التهنئة بما فتح الله تعالى من الظفر بالعدو الذي أطاع شيطانه، ومدّ في مضمار الغيّ أشطانه، واتبع ما أسخط الله وكره رضوانه، وجرى الله على جميل عادته في زلزلة أطواره، واستئصال أحزابه وأخباره، الذين غدت الرماح تسقي مياه نحورهم، والسيوف تنهب ودائع صدورهم، والحمام يجول عليهم كل مجال، ويستدني إليهم نوازح الآجال»[1] ويستمر ابن أبي الشخباء في رسالته إلى أن يصل إلى هدفه، وهو أن يجزل الوزير له العطاء، ويمنحه بعض منحه ونفحاته، فيقول: «وبحكم ما العبد عليه من تطلع الأمل القوي، وتوقع الإنعام الكسروي، عززها بهذه المناجاة، وإن كان على ثقة أن رشاه قد ألقي في الغدير القريب، ورائده قد خيّم بالمرتع الخصيب»[2].

إن الكاتب في رسائل التهنئة، يستغل الفرصة لطلب العطاء، دون تستر أو حياء، ويشفع نثره ببعض نظمه، الذي يدور حول المعاني ذاتها.

---

(١) ياقوت ــ معجم الأدباء ــ ٩/٧٢ ــ ٧٥.

(٢) ياقوت ــ معجم الأدباء ٩/٧٥.

والرسالة الرابعة والأخيرة من رسائل التهنئة[1]، يستغل فيها الكاتب تماثل صاحبها للشفاء ليكتب له مهنئاً، بل طالباً العطاء، مستغلاً الحدث السعيد، مستهلاً رسالته بالدعاء لصاحبها الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي، الذي تولّى الوزارة زمن الخليفة المستنصر الفاطمي، قائلاً: «خلد الله أيام الحضرة الأفضلية ما فضلت الأسماء حروفاً، وتقدمت واو العطف معطوفاً، ولزمت الأفعال اشتقاقاً وتصريفاً. . .[2]، ثم يعرض الكاتب، إلى شفاء أمير الجيوش، في جمل قليلة، ويتحدث عن حاجته إلى كرم الممدوح، حتى ضاعت الفكرة الهامة الرئيسية التي من أجلها كتب ابن أبي الشخباء رسالته، لتطغى عليها فكرة طلب العطاء الذي يصل به إلى الاستجداء، فيعفّر خَدَّيه، ويتمسح بأعتاب الأمير، ويطلب تصريحاً لا تلميحاً، ويصور سعادته عندما علم نبأ شفاء بدر الجمالي: «وأن الجسم الشريف قد التفع شملة الإبلال، وعاد مزاجه إلى الاعتدال، أطال العبد في الترب تعفير خده، وبالغ في شكر الله وحمده»[3] ويصوّر نفسه في قوله: «فأمّا حال العبد فعلى الحالة التي يؤمل من الحضرة العلية كشف ضبابها، وانتكاس أسبابها، وكأنه من العبودية يقتضي ألا يغبّه مزن مكارمها، ولا تتجاوز عنه جفون مراحمها. . . وللحضرة العالية الأفضلية، الرأي الأعلى في انتياش العبد من هذه الغماء، وكأن ما تهب له من العناية زكاة عما ملاها الله من رزق الزمان، ومكّنه لها من قواعد العز والسلطان، وتقرباً إليه جل اسمه. . .»[4].

وتضعف شخصية الكاتب أمام رغبته في العطاء، ويعتبر العطاء جزءاً من

(١) الذخيرة ـ لابن بسّام ٤/ ٦٤٠.
(٢) الرسالة في الذخيرة ـ لابن بسّام ـ ص ٦٤١.
(٣) الذخيرة ـ لابن بسّام ـ ص ٦٤٣.
(٤) الذخيرة ـ لابن بسّام ـ ص ٦٤٣.

ضريبة الزكاة التي يجب أن يؤديها أمير الجيوش تقرباً إلى الله، حتى يخرج الكاتب العبد من الهم والغم. وتقترب صورته من صورة أهل الكدية الذين كانوا يستجدون الناس بأشعارهم، فقد كان ابن أبي الشخباء في رسالته السابقة هذه، مستجدياً لأمير الجيوش، بنثره ونظمه، فقد نظم أبياتاً غير قليلة، تدور كلها حول العطاء، وتقوم على المبالغة في إضفاء صفات على الممدوح غير موجودة فيه، ومنها رغبة الشمس في تقبيل كفه.

والشمس تهوى أن تقبّل كفّه فتذاد بالسمر اللُدَانِ وتُمْنَعُ[1]

ويصف نفسه بالبؤس والعبودية فيقول:

أتتركني يا دهر في البؤس مفرداً ومالِكُ رقيّ مُفْرِدٌ فيك واحد[2]

وكلها معان تخلو من الكرامة والنخوة، ويغلب عليها طابع الاستعباد والاستجداء، وهو في أشعاره في الرسالة السابقة، لم يذكر شفاء الممدوح أو اسم صاحب الرسالة المرسلة إليه، مما يدل على أنه كان يعد أشعاره ثم يضمنها رسائله.

* * *

أما عن **اللون الثالث** من ألوان رسائل ابن أبي الشخباء، بعد اللونين السابقين وهما: **التهنئة وطلب العطاء**، وهو لون يوضح بعض قسمات شخصية الكاتب، وهو السخرية والاستهزاء.

وللكاتب أربع رسائل في التهكم والسخرية الفكهة والاستهزاء اللاذع، ذكرها ابن بسّام في ذخيرته، ولم نعثر على غير هذه الرسائل الأربع في

(١) الذخيرة ـ لابن بسّام ـ ص ٦٤٢.
(٢) الذخيرة ـ لابن بسّام ـ ص ٦٤٢.

المصادر الأخرى، ولعل طبيعة المجتمع المصري، وما عرف به هذا المجتمع من حب للدعابة والسخرية، كان لها أكبر الأثر في تشكيل هذا الاتجاه الساخر في نثر الكاتب. كما أن شخصية الكاتب تميل ميلاً عظيماً نحو التهكم والاستخفاف، والسخرية والمداعبة، والنقد الناقم، فقد بدا في رسائله هذه ثائراً بقلمه، ساخطاً بعباراته، يكاد يسقط من يرسل إليه الرسالة سقطة لا قيام بعدها، ويمكن أن يقترب هذا اللون من هجاء الشعراء الساخر، والنقد الكاريكاتيري حين يرسمون الشخصيات مثار السخرية، بل الشفقة أحياناً في صورة تضحك من حولهم وتبكي صاحبها طويلاً كما كان الحال في شعر دعبل الخزاعي، وابن الرومي وغيرهما من شعراء التهكم والاستخفاف.

وربما كان ابن أبي الشخباء في رسائله الساخرة أقرب إلى الجاحظ في سخريته، واستخفافه ببعض أفراد مجتمعه، مثل أحمد بن عبد الوهاب في رسالة التربيع والتدوير، وكل من درس طبيعة الشعب المصري أعجب بالفكاهة، «وبالدعابة المصرية، وكيف يرسل المصريون الفكاهة تلو الفكاهة، والنادرة بعد النادرة، وهم يضحكون على سمع هذه الفكاهات والنوادر، بأصوات عالية، وذكر الكتاب أن الفكاهة المصرية تدل على ذوق المصريين، وسرعة بديهتهم، وعلى وعي شديد في تذوقها، وزعم بعض الكتّاب أن المصريين أكثر الشعوب حباً للفكاهة وكلفاً بإطلاقها وسماعها، وأن الفكاهة تجري في دم كل مصري»[1].

ولما كان ابن أبي الشخباء وافداً على مصر في مطلع شبابه، وقضى معظم حياته في مصر ومع المصريين، فقد تأثر بما تأثروا به، وظهر في أدبه

---

(١) د. محمد كامل حسين ــ في أدب مصر الفاطمية ــ دار الفكر العربي ــ ط. ١ ــ ص ٣٠٤.

آثار البيئة المصرية، وخصائص الكتابة المصرية، «ولم يكن ابن أبي الشخباء مصرياً، بل كان من عسقلان، وبالرغم من أن الحدود الجغرافية تجعل عسقلان بلداً في فلسطين، ولكن يجب ألا ننسى أن فلسطين كانت ولاية من ولايات مصر منذ العصر الطولوني، واستمرت تابعة لمصر خاضعة لتأثيرها السياسي والفكري إلى عهد قريب، فوحدة فلسطين مع مصر أشد وأقوى من وحدتها مع البلاد الأخرى، فلا غرو أن رأينا ابن أبي الشخباء العسقلاني النشأة يتأثر بما تأثر به الكتّاب، الذين نشأوا وترعرعوا في مصر بهذه الخصائص التي كانت تسود الكتابة المصرية»[1].

ويذكر العماد الأصبهاني في خريدته أن ابن أبي الشخباء: «له الملح الصنيعة»[2]، والفكاهيات من أغراض الكتابة الإخوانية «فقد قدم الكتّاب ألواناً متعددة من الكتابة الإمتاعية وهي الكتابة التي تستهدف الإمتاع العقلي والنفسي، وتستهوي جمهور محبي القراءة، في أن يقبلوا عليها، ويلتذوا بها، ويستمتعوا بفنونها، ومنها الإخوانيات والفكاهيات»[3]، والرسائل الساخرة وإن كانت تضحك بعض قرائها، فإنها تحزن وتشقي أصحابها، المستهدفين بها، فهي فكاهة وسعادة، وتعس وشقاء.

وابن أبي الشخباء في رسائله الإخوانية الساخرة، يوجهها إلى نوع معين من الأشخاص الذين لهم اتصال به، وتربطه بهم معرفة سابقة، فنراه يسخر من بعض القواد يعاتبه على تقطيب جبينه، عندما نظر إليه[4]، والثانية في قائد

(١) د. محمد كامل حسين ـ في أدب مصر الفاطمية ـ ص ٣٣٧.
(٢) العماد الأصبهاني ـ خريدة القصر وجريدة العصر ـ ص ١٤.
(٣) د. مصطفى الشكعة ـ الأدب في موكب الحضارة الإسلامية ـ كتاب النثر ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ـ ص ٤٦٥.
(٤) الذخيرة ـ لابن بسّام ـ ص ٦٣٠.

آخر، لم يفصح عن اسمه، أو هيئته الاجتماعية، ولكنه يسخر منه حين رأى: «سلامه قد تقاصر طويله، وروض جوّه قد زاد ذبوله، وماء بشره قد غاضت بحوره، ونشاط لقائه قد استمر فتوره»[1] وفي الرسالتين الساخرتين يسخر فيهما «من أصحاب القلانس الذين تخلفوا عن حضور مجلس الأنس لأجل الغناء»[2].

وتقترب الرسالة الساخرة الأولى في تهكمها من تهكم الجاحظ في رسالة التربيع والتدوير، حيث يسخر ابن أبي الشخباء من الذي ينظر إليه مستخفاً، ويسأل عن سبب ذلك: «أأتنزل إليه وحي، أم عصب به أمر ونهي، أم حصل من الخلافة على وعد، أم أنسيء له الأجل مدة العهد، أم قلّ عقله فعق نفسه وظلمها، وجهل مقادير الأشياء وقيمها، واعتقد أن الدنيا طوع حكمه، أم رأى الملائكة المقرّبين تتشفّع به، والحور العين تشكو لاعج حبّه، وثمار الجنة تدلّت إلى يده، ونار جهنم تُقتبس من زِنده، والكوثر يُمدُّ من مَعينه، والسمواتُ مطويات بيمينه، والبراق قد امتطى لحضرته...». ويستمر ابن أبي الشخباء في استخفافه، ويتمادى في تهكمه، ويعلن جهل صاحبه ويسلك مسلك الجاحظ حين سخر من جهل أحمد بن عبد الوهاب، فيقول ابن أبي الشخباء: «إن دونه في الحصاة والكيس بطليموس، وفي الحكمة أرسطاطاليس، وإن الحكمة تستنتج من ظنه، والغيث يرشح من سنه، ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلاّ بإذنه﴾[3]... ويضمن الرسالة بعض نظمه، ليؤيد اتجاهه الساخر، ويؤكد الفكرة، ثم يطلب منه أن يحل عقدة جبينه، ويزول

---

(١) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ص ٦٣١.

(٢) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ص ٦٣٣ وص ٦٣٤.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

التمـارض من جفـونـه، وخفض الإصبع من سـلامـه، وتـرك النـزوة على غلامه. . . ».

وسخـريـة ابن أبـي الشخبـاء تكشف عن بعض أسـرار شخصيتـه، وهو يحاول أن يجعل الآخرين يشعرون بـه، وبمكـانته الأدبيـة، وهم من الذين ليس في أيديهم المنـح والعطاء، وهـو وإن بدا مستجـدياً مـع القادرين، يبـدو مستعلياً على غيرهم، يضـع حولة هالة من احترام الكتّاب. ومما لا شك فيـه أنه قرأ بل حفظ رسالـة الجاحظ السـاخرة، وإن بـدا البون شـاسعاً بين أسلوب الكاتبيـن لاختلاف عصريهما، واختلاف قدرة كـل منهما الفنيـة. وفي رسالـة ابن أبـي الشخباء بعض من رسالة التربيـع والتدوير، ومنهـا الاستهزاء المبـالـغ فيه، والتطاول بالقلم، وادعاء مهجوه علومه بمعارف يجهلها، وسخرية الكاتب من الغباء، ويضفي الكاتب على مهجوه هالات من المبالغة الساخرة، تصل إلى ذروتهـا، حين يتخطى حـدود الفكر والشـرع، فيذكـر أن السمـوات مـطويـات بيمينه، و﴿من ذا الذي يشفـع عنـده إلاّ بإذنه﴾، فقد وصـل في تهكمه إلى حـد يُغضب أهـل الدين. ومنـه الملائكـة تتشفـع بالمهجـو، والحـور العين تشكـو لاعـج حبه، وثمار الجنة تدلّت إلى يده، ونار جهنـم تقبس من زنده، والكوثر يمد من معينه. ولم يصل الجاحظ في سخريته مع أحمد بن عبـد الوهـاب إلى هذه الدرجـة من الاستخفاف بـالشرائـع والمقـدسات، وإن بـدا الجاحظ أكثـر طعنـاً وأشد إيجـاعاً، وربمـا كان استخـدام هذه الآيـات في صفات الله تشعـر بإلحاد المهجو نفسه واستخفافه بالدين واستعلائه. . .

ويوضـح الكاتب حقيقة الذي يسخـر منه، فيـأتي بنقيض ما وصفـه بـه، فيرى أن: «شيطان ظنه مارد، وأن تصوره فاسد، ولا حقيقة لشيء مما توهمـه، وأنه سفيه في الرأي وأفن، وتغيّر في الطينة وعفن»[1].

(١) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ص ٦٣١.

وسخرية ابن أبي الشخباء لبعض أصحاب القلانس الذين اعتذروا عن حضور مجلس أنس لما فيه من طرب وسكر، يسلك الكاتب المسلك نفسه، فيحط من شأن مهجوه، وينزل من قدره، بل يحط من شأن كل من كان على شاكلته، فيثير سخط جماعة العلماء، وأصحاب العمائم، الذين يحتشمون في سلوكهم، ويرى الكاتب إن كان عذر هذا العالم نابعاً من «دين وثيق، وخلق بالتقوى خليق، فما بلغ مولاي من حفظ الشريعة إلى هذه الرتبة، ولا وضع قدره بعد على هذه الهضبة»[1]. ويعلل الكاتب اعتذار مهجوه بأنه: «يحكم أمراً، ويصيد بها إذا تعقل عمراً»[2]. ولا يقف الكاتب عند هذا الحد، بل يسترسل في تهكمه بهذه الطائفة من العلماء، فيسخر من عالم آخر في رسالة أخرى، ويعلل اعتذاره عن الحضور بأنه، قد عثر على خلّ جديد، وأنه يستفرد بمجلس أنس، لا يعكر صفوه فيه أحد غيره، فيرسل ابن أبي الشخباء، من يستوضح الخبر، فيخبره بأنه وجده في: «مجلس حسن، ومقام صبوة وفتن، وأمور بديعة، وأحوال وسيعة، وفاكهة لا مقطوعة، ولا ممنوعة، وظبي قد كحل بالسحر لحظاته، وأطلق العقارب على وجناته، ونظم السلوك في ثغره، وأنبت ثمر الصبا في صدره»[3]، ويضع الكاتب ـ كعادته ـ بعض أشعاره ليبرهن صحة دعواه، فيقول في الجارية، وفي الشراب الذي تقدمه لصاحبها:

إذا أخذت أطرافه من بحورها ... رأيت اللجين بالمدام مذهَّب
كأن بخديّه الذي جاء حاملاً ... بكفيه من ناجودها بات يقطب[4]

---

(١) ابن بسّام ـ الذخيرة ـ ص ٦٣٣.
(٢) ابن بسام ـ الذخيرة ـ ص ٦٣٤.
(٣) ابن بسّام ـ الذخيرة ـ ص ٦٣٤.
(٤) ابن بسّام ـ الذخيرة ـ ص ٦٣٤.

ويلتمس الكاتب عذراً في تخلف صاحبه عن الحضور، ويلوم عليه تفرده بالحسناء، بل تفرده بهذه الفاحشة المتبينة دون أن يشركه معه: «فقد تأبط في الليل شراً، وسار إلى حيث تسكن الغزلان سراً، وقد مرت أعضاؤهم نوماً وسكراً»[1].

والكاتب يعتمد على المفارقات في سخريته، وربما كان في سخره مثار نقد من المجتمع، وربما كان في ذلك سبب لاعتقاله، فلم يكن هناك غير قلمه ورسائله من سبب يصل به إلى خزانة البنود.

وابن أبي الشخباء في تهكمه لاذع وصريح، يؤكد أموراً يريد اقتلاعها من المجتمع اقتلاعاً، وينصب تهكمه على طائفتين من أبرز الطوائف التي كانت تشغل اهتمام عصره وهي طائفة القواد، وطائفة علماء الدين أصحاب العمائم، ويرى فيهما عيوباً تثير سخطه. وهو يحارب بعض الرذائل مثل العبوس في الوجه، وتقطيب الجبين، والاستعلاء على الأصدقاء وادعاء العلم بأمور يجهلها صاحبها، ومنها التظاهر بالورع، والمتاجرة بالدين، والتستر خلف القلانس، وهي سخرية تفصح عن مكبوت نفس يريد أن يحقق التوازن بين رغباته وبين قدراته. ويركّز على المفارقات، كما فعل الجاحظ، ولم يسرد التفاصيل، بل أوجز وأوجع واعتمد على رشاقة أسلوبه، وقصر جمله، وتحقيق التوازن بين عباراته، والاستشهاد بالكثير من شعره، وهي سمة لم تكن من سمات الجاحظ الفنية، ومهما كان الأمر فإن ابن أبي الشخباء في رسائله الساخرة يعتبر امتداداً لرسائل السخرية من قبله خاصة التربيع والتدوير ولأشعار الشعراء الساخرين ــ أيضاً ــ.

* * *

(١) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ص ٦٣٤.

اللون الرابع من رسائل ابن أبي الشخباء هو موضوع **الاعتذار وطلب الشفاعة**، ويشغل هذا الغرض ثلاث رسائل، تضيف جديداً إلى معالم شخصية الكاتب، ونراه في واحدة من هذه الرسائل يعتذر عن تأخيره في وداع بعض إخوانه حين سفره، فيكتب إليه معتذراً، معلناً ولاءه، وفي الرسالتين الأخريين يطلب فيهما الشفاعة من كبار ممدوحيه، ويدافع فيهما عن نفسه، ويوضح كثيراً من معالم شخصيته، معلياً من قدره، مخاطباً عقل ممدوحه، مُسفّهاً تفكير الآخرين، ويعتمد في ذلك على أسلوبه في السرد والتفصيل بعد الإجمال، وفي التعليل بعد مناقشة الأمور مناقشة منطقية، ليثير ممدوحه ضد خصمه، الذي أشاع عليه الشائعات. وقد نجحت هذه الرسائل في الكشف عن جانب مهم من جوانب مجتمع الأدباء، ومجتمع من يتعاملون مع أولي الأمر، حيث الحقد والغيرة التي تأكل نفوس أصحابها، عندما يكون الأديب صاحب حظوة عند أهل الحظوة، فتختلق حوله القصص الملفقة والأقاويل، وتاريخ الأدب يشهد بالكثير من هذه الوقائع من النابغة الذبياني في اعتذاره للنعمان إلى المتنبي وعتابه على سيف الدولة الحمداني، فنرى ابن أبي الشخباء يصور المجتمع المحيط بالمسؤولين بأنهم طائفة لا هم لها إلاّ القيل والقال. وهو في اعتذاره عن توديع بعضهم يقول: «ما أخّرني عن خدمة مولاي بالوداع أنّي متأخر في حلبة ولائه، ولا عار من ملابس إخائه وآلائه، ولوددت لو صحبت ركابه السعيد إلى الصعيد، وقطعت معه عرض المهمه البعيد...»[1]، ويوضح سبب انشغاله بأمرين هما: «انشغاله في إنشاء التقليد العلي وتحريره، وفعل ما أمرت به من الحضرة السامية وتقريره والثاني خوفه من رؤية مولاه وقد حل انطلاقه، ونعق غراب بينه فقضى أضلعاً

(١) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ص ٦٢٩.

وأفاض نفوساً وأدمعاً» وهو في رسالته هذه يكشف عن عمله الرسمي في ديوان الإنشاء، حيث انشغاله بكتابة وتحرير ما أمر بـه من الحضرة السامية.

وفي الأخرى[1] يصور مجتمع الأدباء المقربين من الولاة، وانتشار الشائعات التي تكاد تودي بحياة من تحاك حوله، ويعلن الكاتب خوفه من: «جاه مولاي أن يميل، ويشفع فيه القال والقيل، فيصل إليّ من المصاب بذلك ما يعشى الناظر، ويخذل الناصر، لا سيما والنسب حظه من الشرف الخطير، وقسطه من الإعظام والتوقير، والصغير يعد به كثيراً، والحصاة تحسب معه ثبيراً، ولو كان مولاي مد على هذه السقطة سجفاً، وشرب ذلك العقار مزجاً لا صرفاً، لجاز أن تخفى القصة، وتنساغ قليلاً هذه الغصة، فالعقل نعم الرقيب، والليل نهار الأديب»[2].

والكاتب قد وصل إلى سمعه ما يصم الآذان، فخشي عقاب مولاه الذي يحسب الحصاة الصغيرة وكأنها جبل عظيم. وهذه الرسالة من اعتذاريات ابن أبي الشخباء التي انشغل فيها بنفسه، ومدح مولاه صاحب الرأي والأمر، أشار فيها إلى بعض النقائص الأخلاقية، وكشف فيها عن بعض دقائق نفسيته، وتمنى أن يسدل مولاه ستاراً على الخبر، ووضح خوفه ظاهراً بين سطور رسالته، «فوجدت والله من إشاعة هذه الحال ما يجده الخائف غاب واقيه، والسليم عدم طبيبه وراقيه، خوفاً على جاه مولاي أن يميل»[3].

---

(١) الرسالة كاملة في الذخيرة ــ ص ٦٤٨ و٦٤٩.

(٢) قوله: والليل نهار الأديب فيه إشارة إلى قصّة ليحيى البرمكي حين بلّغه أن ابنه الفضل قد تشاغل باللذات عن النظر في أمور الرعية، وكان والياً بخراسان، فكتب إليه يلومه، وضمّن رسالته أبياتاً جاء فيها:

فكابد الليل بما تشتهي فإن الليل نهار الأديب

ابن خلكان ٤/٢٨، الذخيرة ــ ص ٦٤٩.

(٣) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ص ٦٤٩.

وتدور رسالة ابن أبي الشخباء الأخيرة حول الموضوع نفسه، وهي الوشاية وسعاية الحاقدين، وبث الأقوال الكاذبة، واختلاق نسبتها إليه مما يدفع الكاتب إلى أن يعتزل مجلس مولاه، وينقطع عن الحضور، فيسأل عنه صاحب المجلس، ويظن فيه جفاء أو كبراً أو استعلاء، ولكن الكاتب يفسر غيابه بوجود: «من يأكل لحم أخيه حياً، ويرى غيبة خلطائه طعاماً مريأً»[1]، ويظل الكاتب في توبيخ الواشي، ومدح الوالي، وتقديم العذر، وهي الأمور الثلاثة التي تدور حولها رسالة الاعتذار عنده، ويعلن في ختامها الولاء والحب.

ورسائل ابن أبي الشخباء في الاعتذار تؤكد ولاءه لمولاه، وينفي عن نفسه سُبَّةَ الجفاء أو التمرد، ويوضح صورة المجتمع الواشي، ومحاولة البعض الدسّ والكيد للنيل، والاعتذاريات تفسّر سبب غضب المولى عليه، وتوضح سر هذا التحول، وتوبيخ الخصوم، وتمدح الولاة، ويستشهد فيها ببعض أشعاره وأشعار غيره، ولم يكن السبب الذي من أجله يكتب رسائل الاعتذار مخيفاً ولكنه يدور حول مقاطعته حضور مجلس أو غيابه عن توديع مولاه...

وتصادفنا رسالتان من رسائل ابن أبي الشخباء يؤدي بهما دوراً اجتماعياً من تلك الأدوار التي تقع على عاتق الكتّاب والشعراء، وهي **رسائل العزاء والمواساة**، وتخفيف الأحزان، يمسح الكاتب دموع مولاه، ويخفف من حدة الفجيعة التي نزلت به، والكاتب في الرسالتين يختار موضوعين مختلفين، أو مناسبتين تستوجب كل منهما العزاء والمواساة. إحداهما مناسبة خلع الوزير من منصبه بعد أن يستقر الأمر له، والأخرى غرق ولد فخر الدولة. والمحنتان قد وقعتا لرجال معروفين، ولم يكن ابن أبي الشخباء، في عزائه اجتماعياً يقدمه لعامة

---

(١) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ص ٦٦٠.

الشعب، بل كان يختار من يواسيه ويقدم لـه العزاء.

والكـاتب في رسالتـه الأولى التي كتبها لبعض أصحـابـه ممن استقـرت الـوزارة لهم ثم عزل منهـا، يقسم رسالتـه إلى أفكار ثـلاث أساسيـة يصور من خـلالهـا معـرفتـه بـالحيـاة، وعلى المـرء ألا يفـرح بمسـراتهـا، أو يجـزع من شدائدها، فربما كان في المرغوب شر، وفي غير المرغوب خيـر، «فكم سبب اجتمعت فيه شوارد الآمـال، ولبس ظاهـره مسحة من الجمـال، كان المكـروه منظوماً في تاجه، منطوياً في أثنائه وأدراجه، وآخر ظهـر للناس بلون شـاحب، ووجه قاطب، كـان ضامنـاً لابتسام الـزمن، وكافـلاً بالأجمـل الأحسن. وبهذا أدّب تعـالى عبـاده، وقـال في الكتـاب المكنـون: ﴿وعسى أن تكـرهـوا شيئـاً وهـو خيـر لكم، وعسى أن تحبـوا شيئـاً وهـو شـر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾[1]. ويأتي بقول للبحتري جاء فيه:

والشيءُ تُـمنَـعـهُ يكـونُ بـفـوتِـه أحـظى من الشيء الـذي تُعـطاه[2]

ينتقـل الكاتب بعـد هذه الفكـرة ليتحدث عن طبيعـة الوظـائف العليـا، فـأصحابهـا لا يعرفـون أمناً أو استقـراراً، فيقول: (اعلم أن هـذه الرتبـة زليقـة الصراط، سريعة الانحطاط، يعلو الإنسان صهوتها ثم هو بعد راجل، ويتحلى بها وقتاً ثم هو مسلوب عاطل)[3]، ويختم الكاتب رسالته بالفكرة الأخيرة وفيها يمدح صاحبه بأنه خير من تسعى إليه الوزارة، وأن أولي الأمر عرفـوا ذلك بعـد أن حـلّ مكانـه غيره، ممن لا يتمتـع بـالكفاءة المـطلوبة، فسـوف تـدعى إلى شعب المنصـدع، ووصل المنقـطـع، وإيجاد الممتنـع، فهنـاك يقوم بـالأمـر، ويسهل الحزن والوعر»[4].

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٦.

(٢) الرسالة في ذخيرة ابن بسام ــ ص ٦٣٢.

(٣) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ص ٦٣٣.

(٤) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ص ٦٣٣.

ونجاح الكاتب في رسالته يظهر في قدرته على تخفيف الحزن، وتوضيح طبيعة الأمر، وعدم استطراده فلم يستشهد بحالات أخرى، ولم ينظر إلى أمور في الحياة أشبه بحالة الوزير المخلوع، كما أن الكاتب لم يكثر من سرد الحكم ومن الاستشهاد بالمثل، فلم يكن واعظاً في رسالته، بل بدا كاتباً خبيراً بالحياة ومجرباً، يعرف أن يكتب في الموضوع الذي يستحق الكتابة، فكان قلمه مستجيباً له في كل أحواله، مطيعاً له في كل أفكاره، يعقد له الصلات الوثيقة مع كبار قومه، فيقف بجانبهم في كل مناسبة في الشكر والتهنئة وفي المواساة والعزاء.

والكاتب في رسالته الثانية التي يعزي فيها بموت ولد فخر الدولة غريقاً يستهلها بتصوير الزمان وغدره، ثم يصور الحزن الذي نزل بالمجتمع كله حين سرى نبأ مصرع ولد فخر الدولة غرقاً، ويصور الفجيعة في فقد هذا الشاب، ويختم الرسالة بمدح فخر الدولة بالتقوى والصبر والتحمل.

وقد سارت الرسالة تعبر عن هذه الأفكار، التي وزعها الكاتب على معانيه مختاراً لها الألفاظ التي تتفق والمناسبة، فنراه يقول في الفكرة الأولى، وهي وصف الزمان: «غير بدع من الزمان أن تنكث حباله، وتصرد نباله، وتراش في قصد الكرام سهامه، وترهف نصاله، وتفهق بالغدر فجاجه، ويمزج بالسم أجاجه، ويثار في النفوس عجاجه»[1]، ويقول في الفكرة الثانية في تصوير مصرع الغلام: «رأيت المحامد ذات نور خامد، والمآثر ذات عقد متناثر، والقمر قد سئم هالته، والصبح قد خلع الليل عليه غلالته، فتعالى

---

(١) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ص ٦٥٧، وقد وردت هذه الرسالة في جمهرة الإسلام، الورقة ٦٨، وأنها في رثاء ولد كافي الكفاة وبين الاثنين اختلاف، كما أنّ الرسالة في الجمهرة أوفى مما هي في الذخيرة، كما وردت الرسالة في الأفضليات للصيرفي، ص ٣٢٥، ٣٢٣ ــ وهي أوفى مما جاء في الذخيرة في نثرها وفي شعرها.

الله كيف استرد ذلك البدر قبل تمامه، وذبل ذلك الزهر في كمامه، قبل أن تتشرف بموكبه الأعلام، وتروى من بنانه الأقلام»[1]، ثم يذكر من نظمه ما يؤكد فكرته إلى أن يصل إلى ختام الرسالة فيمدح فخر الدولة فقد «نزل بالحضرة ممن شدّت بالتقوى مريرته، وتساوت في طاعة الله علانيته وسريرته»[2].

والرسالتان خاليتان من أية لمحات نفسية، بالرغم من وجود الفرصة التي تحقق هذا الهدف. كما تخلو الرسالتان من عمق التفكر، والكاتب وإن اتسعت ثقافته فقد كان يعتمد على المحفوظ من الشعر أو المثل، ولم يكن للفلسفة أي تأثير في مكوناته الثقافية حتى في رسائل الشكوى من غدر الزمان، ورسائل العزاء والمواساة.

والكاتب لم يهتم بالجانب الديني في رسائل العزاء مع حاجة الموضوع إلى هذا الجانب. ومع كثرة تضمينه لآي القرآن الكريم في كثير من رسائله إلاّ أن هذه الرسالة خلت من القرآن الكريم. وكان الكاتب في رسالته أديباً يختار الألفاظ وينتقي الصور والأساليب، وينتهز المناسبة لإعلان ولائه، ولمدح مواليه. وهو لم يكتب العزاء إلاّ لمن علا قدره، وكبر شأنه، وكان له في المجتمع منزلة، يسعى الشعراء والكتّاب للتقرب منه، كما أنه لم يكتب في أية مناسبة بل كان يختار المناسبات التي تستوجب العزاء والمواساة حقاً...

ولابن الشخباء رسالة أخرى تدور حول تصوير غدر الزمان، ولعلها جزء من رسالة طويلة، ضاع بقيتها، ويبدو أن الكاتب كتبها في أحد كبار رجال المجتمع المصري في عصره، حين نزلت به نازلة من نوازل الدهر، لا عرف كُنهها، ولم يُصرَّح باسم صاحبها، وخلت الرسالة مما عرف به

(١) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ص ٦٥٩.

(٢) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ص ٦٥٩.

ابن أبي الشخباء من تحليل الأفكار، وتقسيم الرسالة إلى عناصرها الرئيسية، فلم يبق من رسالته غير بعض العبارات التي جاء فيها: «معلوم أن الزمان قد عادانا بعُجابه، وتهشنا بأنيابه، وأدار علينا من صروف أحداثه كؤوساً، وجعل كل غريب لنا أنيساً، ولما خرج عن حكم العادة، وسلك في مولاي غير الجادة. . .»[1].

* * *

ومن أبرز ألوان الرسائل الإخوانية عند ابن أبي الشخباء **رسائل الشوق**، التي يعبّر فيها الكاتب عن وده ومحبته، ويكشف عن مكنون فؤاده، ويشير إلى عذابه في هجر أحبابه، ويعلن عن ألمه لتأخر كتبهم، ويختار الكاتب لذلك اللفظ والصورة، ليؤيد الفكرة، ويسهم في الوصول إلى هدفه.

وله في هذا اللون رسالتان خلت الذخيرة منهما، وأثبتهما ياقوت في معجم الأدباء[2]، كتب إحداهما في صديق له سافر، وكتب الأخرى في صديق آخر تأخر عليه في المكاتبة. . . وهو في كلتيهما يعبر عن الشوق كما كان يعبر عنه كتّاب الرسائل في عصره، وقبل عصره، أمثال البسطامي (٣٣٢هـ)، وأبي الفضل بن العميد (٣٦٠هـ)، والصاحب إسماعيل بن عباد (٣٨٥هـ)، وبديع الزمان الهمذاني (٣٩٨هـ)، وأبي منصور الثعالبي النيسابوري (٤٢٩هـ)، وأبي العباس الغساني (٤٩٨هـ).

ويختلف ابن أبي الشخباء مع كتّاب رسائل الشوق، فقد كان الكتّاب يعبرون عن الشوق واللهفة، ويصورون أفلاك السماء، وعناصر الطبيعة المتأثرة بغياب الصديق، أما ابن أبي الشخباء فكان يبدو حزيناً بعض الشيء في رسائله، يخشى على نفسه الضياع في غياب الصديق، يضطر إلى المداهنة والمصانعة، يفصّل ويبرهن كعادته في معظم رسائله، مستخدماً (إما)

(١) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ٤/ ٦٤٠.

(٢) ياقوت ــ معجم الأدباء ــ ص ١٥٤ و ١٥٥.

للتفصيل، ويوضح القضية وكأنها مسألة عقلية أكثر منها وجدانية، فيكثر من التعليل البسيط والتفسير الساذج على قضية الشوق عنده حتى تطغى على العبارات التي تدل على اللهفة، ويتعلق أمله كله في عودة المسافر، وأوبة الغريب، ليأخذ مكانه بجانبه، وينعم بحضرته.

ويقول في رسالته التي يعبر فيها عن شوقه لصديق له: «لما حديت ركاب مولاي أخذ صبري معه، وصحبه قلبي وتبعه، وبقيت بعده أقاسي أموراً تخف الحليم، وأما الوحشة... وأما ما أعاني بعد مسيره فأشياء: منها عيث الألم، وزوال الاستمتاع، وتكلف اللقاء... ومنها انعكاس كثير من الآمال...»[1]، ويختم رسالته بالدعاء إلى الله أن يعيد مولاه: «والله تعالى المسؤول أن يهب لي من قرب مولاي ما يأسو هذا الكلام...»[2].

وفي رسالته الأخرى التي تدور حول الشوق أيضاً، يعلن الكاتب قلقه لتأخر كتب مولاه، ويقدم لموضوعه ثم يستشهد ببعض أشعاره، أو أشعار غيره، ويقسم الأفكار، ويكثر من استخدام (إما)، ويصف حاله بعد تأخر كتب مولاه عنه، ويصف حاله بعد أن يصل إليه، ويضمّن رسالة الشوق بعض أفكار تناولها في الاعتذار والشفاعة، ليعلن الولاء، ويدعو ويرجو ويمدح في معظم أجزاء الرسالة...

إن الكاتب في هذه المرة لا يشتاق إلى رؤية صاحبه والتمسك به، وإنما يشتاق إلى رسائل الصاحب، فالكتاب عنده يعوض غياب الأحبة، ويخشى أن يكون التأخير على رسائله إهمالاً وتقصيراً، ولذلك يحاول أن يرأب صدع العلاقة بقلمه الذي سخره في القيام بمعظم المهام التي تحافظ على هيئته في المجتمع، وكما جاء في رسالته الأخيرة هذه، قوله: «وأما

---

(١) ياقوت ــ معجم الأدباء ــ ص ١٥٤.

(٢) ياقوت ــ معجم الأدباء ــ ص ١٥٦.

حالي بعده، وارتياحي إلى ما عنده، وتأسفي على الفائت من أخلاقه التي هي من الحسن أدق، ومن المـاء أصفى وأرق، فحـال صب أخـذ مـا في فؤاده، وحـولف بين طرفـه وسهاده، فحـرم لذلـك لذيـذ رقاده»[1]، ويصـور حبـه لـه فيقول: «إنه سمير خاطري، وإن غاب عن ناظري، وهو نازل بضمـائري، وإن بان من بين مخالطي ومعاشري... وأنه من العين بمكان السواد، ومن الصدر بموضـع الفؤاد... لو رآني فسح الله مدته، وضاعف علي مودتـه، لرأى صَبًّا قلبه خفيق، ودمعه طليق»[2]، ويختم رسـالته بـدعائـه إلى الله أن يستجيب لـه في أن يصله الكتاب الذي بـه تتحقق سعادته ويتم أمله...

إن الشـوق من أبـرز البـواعث على كتـابـة الـرسـائـل، وكتّـاب الشـوق يستعرضون مهاراتهم في رسائلهم، والمشتاق إليه مرغوب دائماً، والمشتاق قلق دائماً، يعيش على أمل اللقاء الذي يـأمله، ويكثر من استخـدام العبارات التي تكاد أن تكون تقليدية، تدور حولها معظم رسـائل الشـوق، لا يفرق بينهـا غير الاختلاف في انتقاء الألفاظ، أو صياغة الجمل، وتتسم بالتكرار الممل أحياناً. وهي في الأغلب رسـائـل استعـراضيـة للمهـارات الفنيـة، خـاليـة من العمق الفكري، ومن الاتجاهات الفلسفية، تقوم على إعلان الولاء للصديق، وإظهار المقدرة على إنشاء مثل هذه الرسائل، ومنها قول الثعالبـي: «شـوقي إليك رهين قلبـي، وقـرين صـدري، والـزعيم بتعليق فكـري، وتفـريق صبـري، وسمير ذكري، ونديم فكري، زادي في سفري، وعتـادي في حضري، لا يستقـل بـه صـدري ولا يقوى عليـه صبري»[3]، والبسـطامي يكتب في الشـوق، فيقـول:

---

(١) ياقوت ــ معجم الأدباء ــ ص ١٨٧ و ١٦٩.

(٢) ياقوت ــ معجم الأدباء ــ ص ١٦٩.

(٣) السيد أحمد الهاشمي ــ جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، مكتبة المعارف ــ بيروت ــ ص ٤٦.

«وبعد فالعبد ينهى من لواقح شوقه، لوافح توقه، إلى شهود ذاتكم الجميلة، ومشاهدة صفاتكم الجليلة، لينشق عرفكم الفائح، وبخور عرفكم الفاتح، من الله سبحانه وتعالى فلكم، وأدرّ وبلكم وطللكم»[1]، وكتب أبو الفضل بن العميد «قد قرب محلك على تراخيه، وتصاقب مستقرك على تنائيه، لأن الشوق يمتلك، والذكر يخيلّك، فنحن في الظاهر على افتراق، وفي الباطن على تلاق، وفي النسبة متباينون، وفي المعنى متواصلون، ولئن تفارقت الأشباح لقد تعانقت الأرواح»[2]، ويكتب بديع الزمان الهمذاني في الشوق يقول: «أراني أذكر مولاي إذا طلعت الشمس، أو هبت الريح، أو نجم النجم أو لمع البرق، أو عرض الغيث، أو ذكر الليث، أو ضحك الروض، وأنّى للشمس محياه، وللريح ريّاه، وللنجم حلاه وعلاه، وللبرق سناؤه وسناه، وللغيث نِدَاه ونَدَاه»[3]، وتستمر رسائل الشوق عند الكتّاب تدور حول معنى واحد، لا عمق فيه ولا مجال للفكر، يستعرض الكتّاب مهاراتهم اللفظية، بينما كان ابن أبي الشخباء أقصر منهم نفساً في تكرار الجمل، وفي استعراض هذه المهارات، فيفصّل المعنى، ويقسّم الفكرة، ويدخل في الشوق بعض الاعتذار والعتاب، وبعض المواقف الشخصية التي وقعت بينه وبين من يشتاق إليه... وكان ابن أبي الشخباء يكثر من إقحام شعره في رسائل الشوق، وكان يدافع عن نفسه دوماً في هذه الرسائل خشية الدس والمكايد، فقد كانت صورة ابن أبي الشخباء تبدو في رسائل الشوق، بينما كانت الصورة الأدبية للكتّاب الآخرين هي الغالبة على رسائلهم في الشوق.

* * *

(١) المرجع السابق ــ ص ٤٨.
(٢) المرجع السابق ــ ص ٥٠.
(٣) المرجع السابق ــ ص ٣٧.

ولابن الشخباء رسالتان في **عتاب الأصدقاء**. يحاول عن طريقهما استرجاع ماضي العلاقة. والرسالتان ذكرهما ابن بسام في ذخيرته[1]، وقد تتصل برسائل العتاب، وبرسائل الاعتذار، وقد ترتبط برسائل الشوق، فالكاتب في رسائل الشوق يعبّر عن المحبة، وفي رسائل الاعتذار يعمل على المحافظة على هذه المحبة، وفي رسائل العتاب، يحاول أن يزيل ما يعكر صفو المحبة بينه وبين من يعاتبه، إذا وجد منه تقصيراً، فرسالة الاعتذار تدور حول تقصير بدر من الكاتب، ورسالة العتاب تدور حول تقصير بدر من صاحبه، والرسالتان تدوران حول الشوق والود والمحبة.

ويعتب ابن أبي الشخباء في رسائل العتاب على بعض أصدقائه لأنه صدّق ما أشيع حول الكاتب، «فشن الغارة على وفائه، وزلزل أواخي ودّه وإخائه» ويبدأ رسالة العتاب بقوله: «المودات إذا كانت متينة العقود، صادقة المشهود، موضوعة على أصل عريق، وأساس وثيق، لم تجزعها الشبهة المرمضة، ولم تزلزلها الأباطيل المعترضة، وإن تناقلتها ألسن مختلفة»[2]، يوضح الكاتب أساس الود المتين وعراقة أصله، والبعد عن الشبهات والأباطيل، وتجنب أقوال الألسن المختلفة، ويدور الكاتب حول هذه الفكرة طويلاً في كثير من رسائله، حيث يظهر في صورة المتهم في وده، وينسب إليه ما يعكر صفو علاقته بمواليه، فظهروكأنه هدف للحقاد والحاسدين، ممن يغارون من مكانته أو قربه أو حظوته عند بعض مواليه، والكاتب يحاول ــ دَوماً ــ أن يدفع عن نفسه هذا الاتهام الذي يوجه إليه، فهو في عتابه لم يكتب الرسالة لأجل العتاب نفسه، يستعرض فيها مهاراته الفنية، ولكنه بدا

---

(١) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ص ٦٢٧، ٦٥٢.

(٢) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ٤/٦٢٨.

في الرسالة معاتباً، يكتب عن تجربة حقيقية، يتعرض لها، أصابه منها بعض الأذى، حين يقصّر مولاه في السؤال عنه، وحين يرى: «زيارة مولاي قد صارت مرقعة، وجنوب مودته قد عادت مروّعة، وصرت أرى قوله متناقضاً، وماء البشر من وجهه غائضاً. . .»[1]، ويخشى الكاتب سؤال مولاه عن سر تغيره، فيسأل من يعلم دفائنه، يخبره أن بعض الناس نقل إليه عنه، وشكك في دفاعه، ليهب الكاتب مدافعاً عن نفسه موجهاً القول إلى مولاه بضرورة «رفض قول الماحل، وتغليب الحق على الباطل. . .».

وفي الرسالة الأخرى كانت إلى نفيس الدولة، الذي هجره، واستمع إلى كلام الواشين، «وارتد عن شريعة الوداد، ودان في دين المحافظة بالإلحاد، واستعمل من الجفوة ما ينفر الطرف عن هجوعه، ويوحش الصدر من صحبة ضلوعه»[2] والظاهر أن الكاتب كان من ندماء نفيس الدولة، فلا يشعر لمجالس الراح بطعم في غياب سميره ونديمه، فيقول في آخر رسالته: «وليس والله تتصور لي الأقداح، وتلثم مراشف الراح، إلّا مولاي يحاسيني كؤوسها، ويجهز إلي خميسها، واسأله أن تكون قراءة هذه الرقعة، وقد ركب سمت الطريق، وقابل الأمر بالتحقيق»[3].

إن شخصية الكاتب ابن أبي الشخباء تظهر في رسائل العتاب أكثر مما تظهر في غيرها، فيتحدث عن نفسه أكثر مما يتحدث عن مولاه أو صديقه، ويبدو في رسائل العتاب متهماً يدافع عن نفسه، والطرف الآخر لا يتحرى الدقة، ويطالبه بالتحقيق في الأمر، ويحاول أن يعيد الصفاء إلى

---

(١) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ٤/٦٢٨.
(٢) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ٤/٦٥٢.
(٣) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ٤/٦٥٣.

ما كان عليه، فلا يحتمل للصديق هجراً، ولا يتعامل معه بجفاء، فهو لا يحب الخصام، كما أنه يصدر رسائله عن تجربة بالحياة، ويستعين ببعض أشعاره وأشعار غيره التي تؤيد الفكرة، وتؤكد ما يصبو إليه.

ولكتّاب الرسائل في العتاب رسائل كثيرة وطويلة، يعبرون فيها عن آرائهم في الصداقة وفي الوشاية وفي المودّة، يصورون هجر الأصدقاء. وكان لجمال أسلوبهم أثر عظيم في إعادة الصفاء، وزوال الخصام، وكانت معظم هذه الرسائل تدور حول براءة الكاتب مما أشيع حوله، وتصوير الصديق بعدم تحري الدقة، وللجاحظ (٢٥٥هـ)، وللخوارزمي (٣٨٣هـ)، وللهمذاني (٣٩٧هـ)، ولغيرهم من الكتّاب رسائل سجلتها مصادر الأدب التي اهتمت بتسجيل رسائل الكتاب، مثل صبح الأعشى ونهاية الأرب وغيرهما.

* * *

ولابن أبي الشخباء رسالتان في وصف شهر رمضان، ولم يكن الكاتب فيهما فقيهاً أو واعظاً، بل كان كاتباً يكتب في كل المناسبات، التي يعتد بها الفاطميون. فقد زاد اهتمامهم بالمناسبات والأعياد، وكثرت في عصرهم كثرة لم تعرفها مصر قبلهم أو بعدهم. وقد أشار «المقريزي» في خططه إلى هذه الأعياد التي كان الفاطميون يحتفلون بقدومها جرياً وراء عاداتهم، في الدعوة إلى عقيدتهم، وفي إقبال الشعب معهم على الاحتفال بهذه المناسبات، فقد كان الخلفاء يشركون جموع الشعب معهم، ويغدقون العطاء عليهم. وكانت تمد الموائد العظيمة، وتوزع على الفقراء والمساكين الهبات، ويخرج الخلفاء في مواكبهم وفي زينتهم، فانشغل الشعب بهذه المناسبات، وأضحوا يروّجون للدعوة الفاطمية، وكان موسم رمضان من أهم هذه المناسبات التي كان يحتفل

بهـا، فقد كـان هناك مـوسم غرة رمضـان، وسماط رمضـان، وليلة الختم[1]، وكان الكتّاب يعبّرون بأقـلامهم عن هذه المنـاسبات، فيـرسلون برسـائلهم إلى الخلفـاء والأمراء والقـواد، مهنئين بحلول مـوسم رمضـان وغيـره من المـواسم والأعياد الأخرى، ومنهم من كان يصف المناسبة وما يجري فيها.

ورسائل ابن أبـي الشخبـاء، عن رمضان لم تتنـاول جوانب دينيـة، تعبر عن المناسبة، ولم يدع فيها إلى البـر أو التقوى، ولم يفسـر في رسائله حكمـة الصـوم أو مشروعيتـه، بل غلبت عليه طبيعته في حب الحيـاة والإقبال عليهـا، والأخـذ بنصيبه من الاستمتـاع بهـا، فنـراه في رسـائله في رمضـان يصـور ألم الخليفة لبعده عن شرب الخمر، ويصـور انتظاره لقـدوم عيد الفـطر، ليرتشف الخمر ويستمتـع بما حُرم منه في رمضان. فيقول: «وعلى القـاضي السيد منهم السلام خصوصاً، لأني أعلم عن صورة حاله في هذا الشهر، واحتبـاس يده عن كأس يحلبها، وفمه عن قبلة يسلبها، وقدمه عن الحانة الخمرية، وزيارة الغيد الحورية، فإذا حـلّت بمشـيئة الله أنشوطة هـذا العقال، وأطلـع الله سبحـانه هليه هلال شوال، فأنس وسط القوم، وأخذ بثأره من أيام الصوم»[2].

ولم يكن الكتّاب في رسائلهم في رمضـان مثل ابن أبـي الشخبـاء، فقد وصفـوا رمضـان في رسـائلهم، وسيـطر على وصفهم وصف رمضـان بـالكـرم والفضل والبر، وتهنئة مواليهم بمقدم رمضان وانتهـاز الفرصـة لتجديـد الولاء، ولطلب العطاء، والدعاء للوالي بقبول صومه وعمله وبره، ولابن أبـي الشخبـاء رسالة في رمضـان لا يوجههـا لأحد، ولكنـه يصف جانبـاً خاصـاً، وهو غيـاب الشرب والمحـرّمات في هذا الشهر الكريم، فلم يخرج في رسالتـه عن تحريم

---

(١) المقريزي ــ الخطط ــ ١/ ٤٩.

(٢) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ٤/ ٦٣٦.

الشهر لمثل هذه المحرمات فنراه يقول: «شهر الصيام ذو فضل مشهور، ورتبته علت جميع الأيام والشهور، فما تنتهك للشرع فيه حرمات، ولا تسمع للأوتار نغمات، ولا تنطق باللغو أفواه، ولا ترشف رضاب الكؤوس شفاه»[1].

ولم يذكر الكاتب شيئاً عن عقائد الفاطميين في هلال رمضان، ولم يستغل تعبيراتهم في رسائله، بل كان يصور الجانب الذي تأثر به في هذا الشهر وهو غياب المحرمات والمسكرات. ويذكر المقريزي في خططه: «أن شرب الخمر كان مباحاً لا إنكار عليه إلا في شهر رمضان، فكثر شربها حتى شربها الناس أمام الخلفاء، في المجامع العامة، وشربها الخلفاء أنفسهم على تلك الحال...»[2].

ولأبي منصور الثعالبي (٤٢٩هـ)، رسالة في التهنئة برمضان جاء فيها: «ساق الله إليك سعادة إهلاله، وعرفك بركة كماله، لقاك فيه ما ترجوه ورقّاك إلى ما تحب في ما تتلوه، جعل الله ما يطول من هذا الصوم مقروناً بأفضل القبول، مؤذناً بدرك البغية ونجح المأمول، ولا أخلاك من بر مرفوع، ودعاء مسموع، قابل الله بالقبول صيامك، وبعظيم المثوبة تهجدك وقيامك، أعاد الله إلى مولاي أمثاله، وتقبل فيه أعماله، وأصح في الدين والدنيا أحواله، وبلغه منها آماله، أسعد الله مولاي بهذا الشهر، ووفّاه فيه أجزل المثوبة والأجر»[3].

ومن الواضح أن رسالة الثعالبي في رمضان أكثر تعبيراً عن شهر الصوم من رسائل ابن أبي الشخباء، فقد أكثر الثعالبي من الألفاظ والجمل التي تدور حول المناسبة، فيذكر البر والبركة والتلاوة والتهجد، والدعاء المسموع،

---

(١) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ٤/٦٤٦.

(٢) المقريزي ــ الخطط ــ ١/٤٩١.

(٣) الهاشمي ــ جواهر الأدب ــ ص ١٤٩.

والصيام المقبول، وتقبّل الأعمال، وعظمة الأجر، والدعوة بعودة أمثاله إلى مولاه وإلى الأمة، ولم يذكر ابن أبي الشخباء شيئاً من هذا، بل اهتم بتصوير غياب المسكرات، والاشتياق إليها، وانتظار هلال شوال للأخذ بالثأر من شهر الصوم، وابن أبي الشخباء غير محب للخمر، ولم يكن يشعر بحلاوة عندما يتذوقها، ولكنه يجامل من ينادمهم، وكان يعبر في رسائله عن اشتياق أصحابه إليها، لا عن شوقه هو، وكأنه يواسيهم بغياب المحرمات، ويعبر عما يدور في نفوسهم، وما تهفو إليه رغباتهم، ومع هذا كان في رسالته أكثر إيجابية في القدرة على التعبير صراحة عن طبيعة المجتمع في عصره، وانغماس المجتمع في الأخذ باللهو بأعظم قسط، فلم يلجأ الكاتب إلى اختيار ألفاظ منمقة، وعبارات تقليدية محفوظة، فجاءت رسائله أكثر واقعية في تعبيرها عن نفوس بعض المجتمع المصري في ظل الحكم الفاطمي.

* * *

ولابن أبي الشخباء رسالة أشبه **بالمقامات** المعروفة عند الهمذاني والحريري وغيرهما... يجمع فيها بعض خصائص هذا الفن من فنون الكتابة، ولا يجمع عناصر المقامة كلها، فلم يكن هدف رسالة ابن أبي الشخباء هذه الشبيهة بالمقامة لغوياً كهدف المقامة، ولم تدر بين بطل وراو، ولم تكن الكدية أو الاستجداء محورها، ولكنها جمعت من المقامة بعض خصائصها، في حسن التأليف، وأناقة التصنيف، وحبكة الحدث، والنكتة الأدبية، ولطافة الطرفة، وكانت أشبه بالقصة القصيرة، فيها يسخر الكاتب من بخل ضيفه، في عبارات يبدو عليها جودة السبك، والتفنن في السجع، والأخذ بأساليب البديع بنصيب وافر، كما أن بطلها واحد، تدور الحكاية جميعها حوله، وهو ابن أبي الشخباء كاتب الرسالة، الذي يقول عن

نفسه في بعضها: «فولجت منزلاً قد استعار من قلب العاشق حراً ورهجاً، ومن أخلاق مالكه ضيقاً وحرجاً، كأنما زخرت فيه النار، ونقط على جدرانه بالقار، فجلست طويلاً إلى أن حضر الإخوان، فرأيت أرغفة قد أحكمت في الصعَر والإلطاف، ولم تتعوذ قط من الأضياف، قد مرت عليها أيام، وعنيت بقول ابن بسام:

أتانا بخبز له يابس ... كمثل الدراهم في خِلْقَته
إذا ما تنَّفستُ عند الخوانِ ... تطاير في البيت من خِفَّته

وثلاثة صحاف، واسعة الأكناف، بعيدة الأوساط من الأطراف، قد جعل في قرارة كل منها ما لا يدفع الشَّغب، ولا تجده اليد إلاّ بالتعب...»[1].

وقد أورد ابن أبي الشخباء ألفاظاً كثيرة، طالما ذكرها كتّاب المقامات، ومنها الخوان والإخوان، والأرغفة والأضياف، والصحاف والأكناف، وهي ليست مقصورة على المقامات، أو على فن بعينه، ولكن استخدمتها بصيغها السابقة وتراكيبها المقامات أكثر من غيرها، وهي تذكرنا بالمقامات المضيرية لبديع الزمان الهمذاني، كما أن الروح الفكهة غلبت على تصوير الحدث في الرسالة، حين استخف الكاتب بكرم ضيفه، وأخذ يبالغ في بخله وفي ضيق المكان، وضيق الصدر، وظل مستمراً في هذا التهكم الموجع، بعد تهكمه بقلة الطعام، ووصف قهوته بأنها:

كالمُهل تغلي في البطون لو أنها ... يوماً تعدُّ لكافرٍ لم تُحْرَمِ[2]

حتى جاء دور القينة «التي يحرم لها السماع، وتستلذ الصمم الأسماع،

---

(١) ابن بسّام ـ الذخيرة ـ ٤/٦٥١.
(٢) ابن بسّام ـ الذخيرة ـ ٤/٦٥١.

تكـدّر صفـو الـراح في شَـذْوِهـا وتـنفُـر الأنـفـارُ من ضـربِـهـا[1]

وينتقـل الكـاتب من وصف المنـزل إلى وصف صـاحب المنـزل، إلى وصف الطعام فـالشراب فـالغناء، ليخـرج من هذا كله، بـأنه لم يكن مسـروراً بهـذه الجلسة، أو مستمتعـاً بها، كـل هذا في جمـل قصيرة متوازية مسجـوعة جيدة التأليف، والكاتب لم يكن يفكر في كتابة مقالة، فـلا تكفه هـذه الرسـالة الوحيدة التي بقيت، وإن كانت تشهد لـه بقدرته على السيـر في هذا الـدرب، وعلى الاقتداء بنهـج الهمذاني في هذه الرسالة، التي يتوافر لها بعض عناصـر فن المقـامـات، ويغيب عنهـا عنـاصـر أخـرى، لتثبت هـذه الـرسـالـة لابن أبـي الشخباء مقدرة جديدة على السرد والوصف والقص الساخر والـرواية الطريفة في جمل قصيرة مسجوعة، وعبارات متوازية، حسنة التأليف.

* * *

ويستعرض ابن أبـي الشخباء مهارته وثقافته العربية في رسالة أدبية، يرد فيها على رقعة، بعث بها إليه «أبو الفرج الموفقي»[2]، وجاءت هذه الرسالة في ذخيرة ابن بسّام، وفي معجم أدباء ياقوت[3]، والرسـالة في معجم الأدبـاء أكثر تفصيلاً عنها في الذخيرة، فقد بدت في الـذخيرة مـوجزة إيجـازاً مخلاً، بينمـا كانت أكثر وضوحاً وتفصيلاً في معجم الأدباء، وفيها إجابة لأمور أراد أبو الفرج معرفتها، فيرد عليه ابن أبـي الشخباء مفسراً محللاً نعباراتها وأشعارها. ومنها: «فلان يحل في قومه محل العميد، ويفرح بالضيـوف فرح ضيفـه بابن الـوليد،

(١) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ٤/٦٥٢.

(٢) أبو الفرج الموفقي من أكبر كتّاب ذلك العصر، وصفة العماد في الخريدة بقـوله: «أحـد كتّاب مصر من الطبقة الأولى»، الخريدة ورقة ٥، وكان معاصراً لابن أبـي الشخبـاء أو كان بينه وبين الموفقي بعض الرسائل «أدب مصر الفاطمية»، ص ٣٣٦.

(٣) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ٤/٦٥٥ ــ ياقوت ــ معجم الأدباء ٩/١٥٧.

قدوره عمّارية، وعطسات جواريه أسدية، ويهوين لو خلق الرجال خلق الضباب، يتضوعن النشر العبقسي، ويرضعن مراضع ثعالة المجاشعي»[1].

وفي هذه الرسالة يشرح ابن أبي الشخباء بعض النصوص التي غمضت على أبي الفرج الموفقي: «وكان يستعين على هذا الشرح بما ورد في كتب القدماء، من التاريخ حيناً ومن الشعر حيناً آخر، وبالأمثال مرة، وبما رواه الجاحظ في الحيوان مرة أخرى، وهذا كله يدل على أن ابن أبي الشخباء كان ملماً بهذه الألوان من الثقافة والعلوم، وأنه كان يستخدمها في كتاباته بل في شعره أيضاً»[2].

وقد استعان ابن أبي الشخباء في رسالته بمعرفته للتاريخ الإسلامي، في تفسيره فرح «حنيفة بابن الوليد»، وبشعر الفرزدق والنميري في تفسيره القدور العمّارية وعطسات الجواري الأسدية، وبمعرفته لأمثال العرب في تفسيره: «يتضوعن النشر العبقسي، وأخسر صفقة من شيخ مهو»[3]، وبقراءته لحيوان الجاحظ لتفسيره: «وهوين لو خلق الرجال خلق الضباب»، وربما كان الكاتب يهدف إلى استعراض ثقافته العربية، وهي أبرز مكونات الكتّاب، فلا يكون الكاتب كاتباً بأسلوبه وصوره فحسب، بل بمعرفته بجوانب الثقافة العربية، واتساع محفوظه للشعر والمثل، ولا داعي لذكر تفسير الكاتب لهذه الأمور فمن يرجع إلى أصل الرسالة يجد فيها مراده.

* * *

(١) ياقوت ــ معجم الأدباء ــ ص ١٥٨، وابن بسّام ــ ص ٦٥٥.
(٢) د. محمد كامل حسين ــ أدب مصر الفاطمية ــ ص ٣٤٠.
(٣) ورد ذكر هذه الأمثال في الدرة الفاخرة ــ ص ١٤، والزمخشري ٨٢/١، وثمار القلوب ــ ص ١٠٦.

أما عن **رسائل الشكر**[1] في نثر ابن أبي الشخباء، ورسائل ابن أبي الشخباء **في الرد على الرسائل**[2] التي وصلت إليه، فإن الموضوعات في هذين اللونين من الرسائل لا يخرج عن المعاني التي أكثر ابن أبي الشخباء من ذكرها، في بقية رسائله، كما أن منهجه لا يختلف عما سلكه، وهو منهج يحمل سمته الفنية، التي تركت بصماته واضحة في فن الرسائل الإخوانية، وخشية إطالة الحديث فإن الرجوع إلى رسائل الشكر والرسائل الجوابية يؤكد صدق ما يقال وهذه الرسائل في ذخيرة ابن بسام، وفي معجم ياقوت.

* * *

لم يكن ابن أبي الشخباء كاتباً للرسائل الإخوانية فقط، بل كانت له **رسائل ديوانية** بالطبع بل هي الأصل في عمله، وفي شهرته، وفي كسبه ومكانته، وقد أشارت مصادر الأدب والتاريخ إلى عمله في ديوان الخليفة، المستنصر الفاطمي، وربما كانت له رسائل ديوانية أكثر عدداً من رسائله الإخوانية، وأكثر طولاً، وأكثر تعبيراً عن طبيعة المجتمع السياسية والعقائدية والتاريخية، وربما تجمعت الظروف فحالت دون وصولها، إلى أيدي المسجلين والباحثين، وقد اعترف الكاتب في بعض رسائله الإخوانية، بانشغاله بكتابة رسائل كُلّف بها من الديوان الفاطمي، وكان مشغولاً بتحريرها مما منعه من توديع بعض أخوانه عند سفره.

ولابن أبي الشخباء رسائل ديوانية قليلة حفظتها مصادر الأدب، منها تلك الرسالة التي ذكرها ابن بسّام في الذخيرة، على لسان الوزير الناصري

---

(١) الذخيرة ــ ص ٦٣٩، ــ معجم الأدباء ــ ص ١٧٥.

(٢) الذخيرة ــ ص ٦٥٤، معجم الأدباء ــ ص ١٥٧.

إلى بعض القبائل، وكان أسلوب الكاتب فيها رسمياً، يتقمص شخص الوزير المسؤول، ويختلف عن نهجه في رسائله الإخوانية، فالموضوع جاد، لا مجال للعاطفة فيه، وخلت رسائله الديوانية التي عثر عليها ـ من أشعاره وأشعار غيره ـ وكان يغلب على تعبيرها التهديد والوعيد، وكان مطلعها يعبر عن غرضها، في جمع النافر، وفي إخماد ثورة المتمرد، وعتاب منكر النعم، وكان ختامها يقوم على الدعاء له بالتوفيق، وجمع الشمل، ورأب الصدع، ولم تخل رسالته الديوانية هذه من استخدام البديع والبيان، وإظهار براعة الكاتب في جزالة أسلوبه مع طولها طولاً لم يعهد في رسائله الإخوانية، حتى يحدث بها التأثير المرغوب، في تجسيم صورة صاحبها الوزير الناصري، الذي يتحدث الكاتب باسمه، وفي السجلّات المُستنصرية عدد لا بأس به من رسائل ابن أبي الشخباء الديوانية، ولم يهتم بنسبتها إليه، وفي التحقيق يغلب طابعه عليها، ولا مجال للتفصيل في الحديث عنها، فالبحث يدور حول الرسائل الإخوانية، أما رسائله الديوانية وأشعاره فالحاجة إلى دراستهما تستحق أبحاثاً أخرى.

* * *

(ب)

تحليل شخصية ابن أبي الشخباء على ضوء رسائله الإخوانية

يمكن الوقوف على بعض ملامح شخصية ابن أبي الشخباء من خلال رسائله، وتعطي الرسائل صورة عن صاحبها، حيث يعبر فيها عن آرائه، وعن رؤيته للحياة والأحياء. ولو حاول الكاتب إخفاء بعض ملامح شخصيته، أو التستر خلف صورة أخرى تخالف واقعه أحياناً، فإن المسلك الذي يعتاد عليه في تفكيره وفي تحليله يغلب عليه ويكشف صورته الحقيقية.

وظهرت شخصية ابن أبي الشخباء من خلال رسائله الإخوانية، شخصية متميزة، لها عوالمها الخاصة بها، التي تفرق بينه وبين غيره، وهي شخصية لها جوانب نفسية، وأخرى عقلية، فقد عبّر عن رأيه في بعض الأشخاص، وفي بعض المواقف، وحاول تعليل وجهة نظره، وحاول تبرير رأيه، ليقنع الآخرين به.

وربما كانت صراحة الكاتب، ومواجهته للأمر، وكشفه النقاب عن أمور لا يقبل السكوت عليها حتى لا تؤدي إلى توتر العلاقة بينه وبين غيره، من الأسباب التي عجلت بنهايته، كما يبدو من خلال رسائله الإخوانية أن له حقاداً كثيرين، وأنه من المستهدفين لحملاتهم. وكان ينزع الأشواك من طريقه، ولا يلبث أن يجد غيرها، فاتُّهِمَ في وده، وفي ولائه، وقد أزعجه هذا الشعور، فظل يدفع عن نفسه، ما نسب حوله، ليؤكد الوفاء والولاء وحفظ العهد.

ولم يكن الكاتب في دفاعه متذللاً أو متضرعاً، بل كان يحفظ لشخصيته مكانتها، ويظهر في صورة المجرب، الخبير بأمور الحياة، العارف بواطن الأمور، وكأنه يؤدب مولاه ــ أحياناً ــ حين يقسو في عتابه، فيصفه بعدم التروي والتبصر، ويطالبه بالتدقيق والتحقيق، وكأن مولاه ينقصه التدريب والتجريب، حيث يرسمه في صورة: «من تستخف حصاته الريح الخافقة، وتشعث من مودته الأقوال الماذقة»[1].

والكاتب ينصح غيره، ويعظ من هم في حاجة إلى التجربة، بما له من دراية اكتسبها من ممارسته الفعلية للحياة، ومن ثقافته وقراءته واطلاعه على سير السابقين. وهو لا يأمر في نصحه، ولا يتفقه في وعظه، ولكنه الأديب

(١) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ٤/٦٢٨.

الذي يصوغ الحكمة في قوالب حسنة، يدعو إليها في رفق وحسنى، ومنها قوله: «العقل نعم الرقيب، والليل نهار الأديب»[1]، وقوله معزياً: «فالجزع لا يصبحُ مالكُه، والخطوبُ لا تخطبُ تهالُكَه، والنازل يُطيفُ منه بالعود البازل، الذي يتحقق أن الدنيا نسيمها شرار، وطعمها مرار، والمقيم فيها موجف، والرائد مُنْبَتٌّ مُعْجِفُ»[2]، وهو في وعظه لا يتعرض لأمور عقيدية مذهبية.

والكاتب في بعض رسائله يبدو محتاجاً إلى المال، فيصور حاجته وكأنه معدم لا يجد قوت يومه، فيصور رِقَّهُ وعبوديته وحاجته إلى مولاه، شاكياً غدر الزمان، حتى ينشل من الغم والهم، وهو والحالة هذه يتذلل، ــ أحياناً ــ بينما نجده في رسائل أخرى يعتز بكرامته، ويصور نفسه متماسكاً لا متهالكاً، ومعتزاً لا متهافتاً، وهو في طلب العطاء يتذلل، وفي دفاعه عن نفسه يترفع.

وأظهرت الرسائل إقبال الكاتب على الحياة، ومسامرته ومنادمته، فقد كان يغشى مجالس الأنس، ويصور اللهو والشراب والغناء، ويعتب على من يترفع على غشيان هذه المجالس، ويصل عتابه إلى السخرية والتهكم ممن يرون في حضور هذه المجالس ما ينتقص من كرامتهم، ويحط من قدرهم، فيظهرهم ويكشف أمرهم، ويرسمهم في صورة المنافقين الذين يظهرون التقوى، وفي سرهم يرتكبون الرذائل، بعيداً عن أعين الرقباء.

والكاتب يذم طعم الخمر، ولا يحمده، يجامل في جلساته، يساير الأجواء من حوله، وتصور بعض الرسائل خفة ظل صاحبها، وحبه للمداعبة، وتشبع نفسه بالسخرية، وقدرته على التعبير اللاذع، فكان أقرب في بعض رسائله إلى التربيع والتدوير في السخرية والاستهزاء وهو لم يكن فكهاً يطلق

(١) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ٤/٦٤٩.
(٢) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ص ٦٥٩.

النكات، أو يمرح من أجل المرح والفكاهة، ولكنه كان ساخراً مصوراً (كاريكاتيرياً) يضحك الآخرين من غفلة من يصورهم.

وتظهر بعض الرسائل ثقافة الكاتب، وحفظه لأشعار العرب وأمثالهم، واطلاعه على التاريخ الإسلامي والعربي مشيراً إلى أهم أبطاله، وإلى أبرز أحداثه، مفسراً محللاً، مما يدل على خلفيته الثقافية العريضة، التي يتمتع بها ليبرز من خلالها مهاراته، ويصور مقدرته الفنية على الإبداع، فهو أديب شاعر كاتب، قد تغلب إحدى الصفتين على الأخرى في بعض رسائله وقد تتساويان. وإن حظيت بعض المصادر بحفظ بعض رسائله، فقد جادت المصادر بحفظ الكثير من أشعاره، ومن الأجدر جمع شعره للوقوف على تحديد مكانة ابن أبي الشخباء بين شعراء عصره.

وتصور الرسائل ابن أبي الشخباء مشاركاً للمجتمع، مجاملاً للصديق والمولى، يشارك بقلمه يهنىء ويواسي ويعزي، ويخاطب الناس على قدر عقولها، ويساير الموقف ـ أحياناً ـ على كراهة منه ومضض، يمدح الرؤساء، ولم يخرج مدحه في نثره وحتى في شعره عن دائرة المعاني التقليدية التي تغنى بها الشعراء، فتغنى بالجود والحلم والوفاء، والشجاعة ورجحان العقل.

* * *

أما عن النواحي التي أهملت رسائله تصويرها، فهي غياب صورة المجتمع المصري، فلم توضح الرسائل طريقة العيش، وأسلوب المصريين في الحياة، ولم تصف مَوْسِماً، أو عيداً وصفاً اجتماعياً، مع أن المجتمع المصري يزخر بالكثير من الأمور التي تستوجب التعبير والتصوير. وكان على الكاتب الملتزم أن يصور هذا المجتمع، ليفيد برسائله علماء الاجتماع، ويعطي لرسائله قيمة أكبر من قيمتها الأدبية والفنية، ولكن الكاتب بدا ذاتياً

يمدح من يعجب بـه، ويسخر ممن يـزدريه ويهنىء ويـواسي ويعاتب ويـدافـع عن نفسه.

كمـا أن الرسـائـل خلت من القيمـة التـاريخيـة، اللهم إلاّ في إشـارات بسيطة لا يعتد بها، حين يهنىء الكاتب بالفتوح، أو يدعو القبائل إلى الإجماع، أو يهـدد الخارجين المتمـردين ولكنـه لم يتوغـل في سر، ولم يـوضـح سبباً، ليعـطي للمؤرخين قيمة تقنعهم وتفيدهم، كمـا أن الكـاتب لم يحـدد عقيـدتـه تحديداً واضحاً، فغاب عن الرسائل التي عثر عليهـا تحديـد هويتـه العقيديـة، بالرغم من سيطرة الاتجاه الشيعي على مصـر الفاطميـة، فكانت رسـائله فقيرة في تصوير العقيدة، والمجتمـع، والسياسة، والتاريـخ، وهي رسائل إخـوانية، لم يستغلهـا الشاعـر في تحليل هـذه النـواحي السـابقـة، من خـلال تصـويـره للأشخاص الذين كتب إليهم رسائله، ولو فعل لأضفى على الرسالة الإخوانيـة قيمـاً أكبر من تلك القيم التي حـظيت بها فنيـاً وجمـاليـاً، وهـو مـا يختص بـه القسم التالي من البحث في هذه الدراسة.